

M O H A M E D T A L A L A L N U A I M I



كفن جبريل



محمد طلال النعيمي

ڪفن جبريل

كفن جبريل / مجموعة قصصية
محمد طلال النعيمي / مؤلف من العراق
الطبعة الاولى ، 2025
حقوق الطبع محفوظة ©



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص.ب : 11-5460 الرمز البريدي 2190-1107
تلفاكس : +961 1 7078 91 - +9611707892
بيروت / لبنان

Email: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكتروني : www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص.ب. 9157، عمان، 11191 الأردن،
هاتف +962 6 5605431/2 ، فاكس : +962 6 4631229
E-mail: info@airpbooks.com

تصميم الغلاف : حكم الكاتب /من العراق
الصف الضوئي : المؤسسة العربية للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعي: المجموعة الطباعية / لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the Publisher.

جميع الحقوق محفوظة ،لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر .

رقم الناشر الدولي : ISBN:978-614-486-556- 9

M O H A M E D T A L A L A L N U A I M I



كفن جبريل

محمد طلال النعيمي



إهداء

إلى بنات أفكاري المومسات..
إلى ذلك الغراب الذي يعبث بمحتويات
رأسي منذ حفنة أعوام...

کفن جبریل

[illegible]

ونحاسٍ فلا تنتصران، عجلوا بالانصراف ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ٦ فمن
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾.

شهمت بقوة ثُمَّ فتحت الكتاب، قلبت صفحاته وهي تُتمتم
بكلمات يطغى عليها حرف الخاء، وبصوت مبحوح واطي قالت:
«أقسمتُ عليكم بعزة الملك الأعلى المُسيطر عليكم سيدي
شمهروش وبعزة أدونيث أصبوث آل شداي، أن تُسعدوا كوكب
بنت فاطمة وأن يغادرها السقمُ والعقم، وأن تغادرها أم الصبيان
قرينها الرجيم، عدو الله والمرسلين، شيطانُ ماردٍ لعين وأن يُعمر
رحمها بطفل يسرُّ جماله الناظرين، توكلوا يا خدام هذه الأسماء
العظيمة، الوحا الوحا، العجل العجل، الساعة الساعة، بارك الله
فيكم وعليكم»، ثُمَّ نفخت بقوة في وجه كوكب الذي برق صفرةً
ورعدَ صرخةً وزخَّ عرقاً، ازدردت كوكب ريقها بصعوبة ودموعها
تسيل بفعل البخور المحمّل بروائح غريبة، دسّت مهدية يدها
تحت كرسيّ خشبيّ قديم تتكئ عليه وأخرجت مرآةً مرسوماً على
ظهرها نجمةً سداسيةً مكتوبٌ على أضلاعها طلاسُم باللون
الأحمر، مرّرتها فوق البخور سبعَ مراتٍ ثُمَّ ناولتها لكوكب وغمزت
لها بعينها الجاحظة، التي تستقر فيها قطعة دم متجلّطة، ثُمَّ أخرجت
من جيب عباءتها حجاباً مثلث الشكل، مُغلّفاً بقماش أسود، قالت
لها وهي تتناول علبة سجائر (أسبين) أبيض:

«هذا الحجاب يُدفن في السرداب الذي يحوي ضريح السيدة (شاه زنان) ابنة كسرى زوجة سيدي الحسن (عليه السلام) بجامع (أم التسعة)، في منطقة حمّام المنقوشة في ليلة القدر، وبعدها ستتغير حياتك وتنايلين مُرادك».

سحبت كوكب من يدها أربعة أساور ذهبية، كانت قد ورثتها عن أمّها وأعطتها للعرّافة التي خطفتها من يدها ودسّتها في حمالة صدرها مشيرةً إليها بالانصراف، وهي تُلقي على المجرمة حفنةً أخرى من البخور؛ لتتوارى خلف دخانه الأبيض.

خرجت كوكب من الغرفة وعيناها تجولان في البيت الذي بدا مخيفاً، فواجهتها شجرة التوت الصلعاء التي تقف وسط فناء المنزل، ويستقر على أغصانها سبعة غربان سود يحدّقون إليها ما زاد المكان رعباً، أطلت برأسها من الباب بوجل؛ للتأكد من عدم وجود أحدٍ قد تقبض عيناه الفضوليتان عليها متلبسة في بيت المشعوذة، كما يسمونها هنا، ويُفسد عليها مهمّتها، أغلقت الباب بيّطء متلفتهً يميناً وشمالاً، وتسَلَّلت خارج الزقاق وراحت تُسرّع الخطى إلى بيتها الذي يقع في عمق أزقة منطقة (الساعة) حيث الموصل القديمة، وصلت بيتها مع قرب انطفاء الشمس، أغلقت بابها بقوة فاهتزّت فردة النعال التي كانت قد شنتها بحبل في واجهة منزلها درءاً للعين والحسد.

دخلت مُسرعةً إلى المطبخ تُعدُّ الإفطار قبل وصول زوجها
إسحاق من العمل، دقائق وانطلق الأذان من الجامع؛ ليُعلن
عن انتهاء اليوم، ممزوجاً بصوت إسحاق الذي يردد بخشوع
وهو يفتح الباب: «اللهم تقبل صيامنا، وارزقنا الجنان العُلا،
وكحل عيوني برؤية أُمي الحبيبة».

في اليوم التالي قضت كوكب جُلَّ وقتها تُفكر بكيفية نُزولها
إلى السرداب الذي يحوي القبر، لكنَّ شوقها إلى طفل صغير
يملاً عليها وحشة الدار، تُحسّ معه بإحساسِ الأمومة الذي
تسمع عنه فقط، جعلها تتغلب على هواجسها، وتقرّر تنفيذ
تعليمات العرّافة بحذافيرها، ثمَّ سرحت بأفكارها مجدداً وراحت
تتخيلُ نَفْسَهَا في (سوق الميدان)^(١) وهي تشتري المهدَ لابنها،
تابعت أحلامَ يقظتها، وراحت تُكمل تجهيزاتِ طفلها، وهي
تبتسم لنفسها في المرأة وتتحسّس بطنها بيديها.

عند المساء اتّكأ إسحاق على الأريكة بعد أن حشا كرشه
بالفطور، قالت له كوكب بأنها ستذهبُ معه الليلة لإحياء ليلة
القدر في جامع أم التسعة، الذي تشعر بأنَّ روحانيته تختلفُ عن

(١) سوق الميدان: سوق تراثية قديمة تقع وسط مدينة الموصل تتخصص بعض
محالها ببيع الصناعات اليدوية الخشبية أبرزها مهد الأطفال والمراجيح
والأسرة.

بقية المساجد، فوافق على اصطحابها معه، افترق الزوجان عند باب المسجد، فدخلت هي مُصلّي النساء وعيناها تتفحصان المكان فلم تجد باباً أو فتحة تؤدي إلى الضريح، أخفت رأسها بعباءتها ودخلت إلى باحة المسجد من باب الرجال، متظاهرة بأنها مُتسولة، جلست على عتبة الباب الداخلي للمسجد، أُقيمت الصلاة وانشغل الجميع بصلاتهم، فانتهزت الفرصة وذهبت تجاه قبة خضراء، يسار المئذنة الكهلهة، يقع تحتها باب خشبي عتيق، دفعته بحذر فأصدر صريراً عالياً، كاد أن يكشف أمرها، دلفت مسرعة إلى الداخل وأغلقتها، فاستقبلتها رائحة العفن والرطوبة التي تملأ المكان، أخرجت من حقيبة يدها مصباحاً أشعلته وقلبها يرتجف خوفاً، هجمت عليها الأفكار المرعبة وكادت أن تفترس عزيמתها، لكنّها تمالكت نفسها بُغية وصولها إلى المكان، نزلت بحذر وهدوءٍ شديدين سِبع درجات، وهي تُبعدُ بيدها خيوط العنكبوت عن طريقها، فوجدت نفسها في قبوٍ مُظلم، يحتوي على أربعة مقرنصات من المرمر، وجدرانُه من الجصّ المتعب المجعد، في إحدى زواياه بابٌ آخر، سارت بُطءً وكأنها طفل يتعلم المشي لأول مرة، وبين لحظة وأخرى تتفحص وجود الحجاب الذي أعطته لها العرافة، والذي علّقه بخيطٍ أخضر حول عنقها، وصلت الباب الآخر،

فرأت فوق ناصيته كتابات بلغةٍ لم ترها من قبل، دفعته بهدوء، وصوتٌ نبضها يعلو داخل رأسها، رأت سُلماً حجرياً آخر ينتظرها، خمسُ درجاتٍ أُخرى، هبطت على السُّلَم وجسدها يُمطر عرقاً بعد أن تَكَبَّدَ بالخوف، تقرأ آيةَ الكرسي والمعوذات عند كُلِّ درجةٍ تنزلُها، بدأت أنفاسها تتسارع وقلبها يخفق بشدة، ثُمَّ قررت الخروج وهي تلعن نفسها والمشعوذة التي طلبت منها هذا الأمر، ثُمَّ ما إنْ تراجعت ثلاث درجات حتى توقفت وقررت إكمال النزول، علَّها تُرزق بطفل، خاصة وأنَّ صاحبة القبر التي تنتظرها في الأسفل من الأولياء الصالحين، عادت ونزلت الدرج ثُمَّ واجهها انحناء آخر ينتهي بسبع درجات أُخرى، أكملت النزول وهي تُضيء بمصباحها الذي بدأ نوره يخفُّ شيئاً فشيئاً، فيما يبتعد صوت إمام المصلين تدريجياً، وجدت نفسها بمواجهة قبر له شواهد رخامية بيضاء عالية، ينتهي كل واحد منها بعمامة منحوتة بدقة، تغطي تحذُّب الضريح قطعة قُماش أخضر منقوشة عليها آيات قرآنية، لم تستطع قراءتها، وتُحيط القبر جثث شموع بيضاء كانت قد أوقدت فيما مضى.

قاربت كفيها ثُمَّ قالت: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»، ثُمَّ قرأت سورة الفاتحة على عُجالة، قطعت بقوة خيط الحجاب

المتدلي من رقبتها، ثُمَّ اقتربت من القبر وساقاها ترتجفان، رفعت بحذر طرفَ قطعة القماش التي تغطي القبر، وهي تُقبلها، ثُمَّ مدت يدها إلى التراب المتحجر، وبدأت بحفر حُفرةٍ صغيرةٍ، ثُمَّ حشرت الحجاب داخلها، وأعدت كومة التراب فوقه، ثُمَّ الغطاء القماشي، هرعت وعين المصباح الذي تحمله بدأت تغفو، أسرعَت خارجةً من عند الضريح بعد إتمام المَهْمَة، تنفّست الصعداء وهي تدخل مُصلّي النساء لتلحق بركب المصلّيات.

سُعدت كوكب بعد أن أتمّت مَهْمَة دفن الحجاب داخل الضريح بنجاح، استلقت فوق سطح المنزل وحدها، بعد أن ملأت القلّة بالماء، فزوجها إسحاق قد حرص على أن يُحيي العشرَ الأخير من رمضان في المسجد، فقبل مجيئه من السودان إلى العراق لغرض العمل، كان يُداوم على ذلك في مساجد الخرطوم طيلة أيام الشهر الفضيل، فجأةً تذكرت كوكب المرأة التي أعطتها لها العرّافة، فانتفضت من مكانها، نزلت على الدرج مسرعةً وأحضرتها، رفعت وسادتها ووضعتها تحتها، ثُمَّ أعدت الوسادة واستلقت على ظهرها، ورددت بخشوع تام: «يا سبت يا مسبوت أعطيني مُراي قبل أن أموت»، ثُمَّ شهقت سبع مرات وبصقت على يسارها، بعدها راحت

تُفكر بالطفل المنتظر وهي تُحصي النجوم، وفي لحظة تذكرت
أسطورة شعبية تقول: «إِنَّ مَنْ يَحْصِي النُّجُومَ يَصَابُ بِالثُّلُوثِ»،
ففزعّت وغطّت رأسها وأغمضت عينيها وراحت تُكمل تخيّلاتها
بطفلها الجميل، وهي تتباهى به أمام الناس، ثُمَّ سقطت في
جوف النوم الذي ابتلعها.

رأت في منامها، أنّها تسبح بِبُرْكة ماء كبريتية، وعند حوضها
الحجري يجلس رَجُلٌ عجوزٌ عارٍ محدودبٌ الظهر، يسكبُ
الماءَ على جسده الهزيل بطاسةٍ نحاس، فيتحول الماء إلى قار
أسود، يكرر ما يفعله وهو ينظر إليها بحنوّ ويمسّد على شعره
الكثّ الأبيض، والذي تساقط كلّ فجأةً مع أول طاسة ماء
سكبها، ثُمَّ اقترب منها وهمس لها بصوت خافت: «ستكتحل
عيناك يا كوكب بصبي جميل، لكن عليك أن تسمّيه جبريل، وإلا
فإنه سيموت بعد أسبوعٍ من ولادته»، ثُمَّ مدّ لها يده وناولها
ورقةً مكتوبةً عليها سورة الإخلاص إحدى وأربعين مرّة، ثُمَّ
تابع قائلاً لها: «عليك أن تكتبي هذه السورة على ورقة
وتطويها، ثُمَّ تُغلّفها بقطعة قماش سوداء، وتذهبي بها فجراً إلى
حظيرة أغنام، وتعلّقها في قرن كبش أسود ليلة الخميس»
بعدها غطس في البركة، ففار الماء في موضع العجوز، ثُمَّ بدأ
يغلي وبعدها هدأ، اختفى وكأن شيئاً لم يكن، دُهِشت كوكبُ

مما رأت، وراحت تبكي بصوتٍ مكتوم محاولة الصّراخ لكنّ صوتها تخطى عنها.

فزّت من منامها على صوتِ الحاج (أبو خديجة) وهو ينادي ويضرب على طبله «اصحّ يا نايم وحد الدايم سحووووور...»

بكفن من القار اتخذ شكل كتلة سوداء، كأنّه نعش فرعونيّ، أنزل جبريل إلى مثواه الأخير، بينما ظلّ كفه الحريّ الأبيض الذي نسجه مُعلّقاً على جدار عُرفته، والذي سهر الليالي في نسجه متحمّلاً وخزات المغزل الذي أدمى أصابعه لأعوام طوال، لم يستدلّ الدفّانون على اتجاه رأسه حين انزلوه إلى اللحد، بعد أن التصق بجلده القار، وأصبح كتلة غائبة المعالم، بلا تضاريس بشرية، حينها عجزوا عن تمييز ملامحه، فوضع في القبر مقلوباً عكس القبلة، فارق جبريل الحياة؛ بسبب عطسة جعلته يترنّح ويفقد توازنه، ويهوي داخل خزان أرضيّ فيه قار يغلي، ابتلعه ببطء كرمال متحرّكة، فيما غلبت صوت صراخه أصوات محركاتِ معمل الإسفلت، التي يسمعها القادم على بعد مئات الأمتار، على مدار يومين متتاليين ورجال الدفاع المدني منهمكون وهم يحاولون استخراج جثته من القار بعدما برّد وأضحى قاسياً جدّاً تماماً كبرد ديسمبر، الذي كان قد سجّل دخوله بموجة ثلوج أقلق لونها سواد القار. لما غلب

اليأسُ فرق الإنقاذ وتقطعت بهم السُّبل وعجزت حيلهم عن إخراجهِ مِنْ فَكِّ السَّوَادِ الْأَصَمِّ، اضْطَرُّوا نهاية الأمر إلى نَحْتِ جِثَّتِهِ على شكل أنبوب من قار. نُقِلَ جبريل على ظهر سديّة إلى مغسلة الموتى، كَبَّرَ مُغَسِّلُ الْجَنَائِزِ وَفَزَعَ مَا إِنَّ وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى الْجِثَّةِ الْمُسَجَّاةِ أَمَامَهُ، سَكَبَ الْمَاءُ الْحَارَّ فَوْقَ كَوْمَةِ السَّوَادِ، أَمَلًا أَنْ يَعْثَرَ عَلَى رَأْسِ الْمَيِّتِ، لَكِنَّ سَمَكَهَا حَالٌ دُونَ ذَلِكَ، بَكَى بِحُرْقَةٍ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَيَحُوقِلُ، وَيَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْحَمَهُ وَيُوسِّعَ مَدْخَلَهُ، ثُمَّ رَشَّ الْمِسْكَ وَالْعَنْبَرَ فَوْقَهُ بَعْشَوَائِيَّةً؛ لِيَمْحُوَ رَائِحَةَ الْقَارِ الَّتِي عَبَّقَتْ الْمَكَانَ، لَكِنَّ الْأَخِيرَةَ غَلَبَتْ رَوَائِحُ الْعُطُورِ الَّتِي سُكِبَتْ تَوًّا وَعَادَتْ لِتَسِيطِرَ عَلَى الْأَجْوَاءِ.

لم تكن والدته كوكب تدرك أَنَّ اللون الأسود سيرا فقه حتى في قبره، وهي التي أقسمت له بأنها ستلبسه بدلةً بيضاء يوم عُرْسِهِ الذي طالما كان حُلْمَهَا الْأَكْبَرُ وَسَطَ زَحْمَةِ الْأَحْلَامِ الْأُخْرَى؛ لَتَعَوِّضَ عَنْهُ مَا فَاتَهُ مِنْ بَيَاضٍ. قَالَ لَهَا حِينَهَا مِنْ وَرَاءِ ابْتِسَامَةٍ خَجَلٍ عَرِيضَةٍ عَلَتْ وَجْهَهُ، وَكَشَفَتْ عَنْ بَيَاضِ أَسْنَانِهِ النَّاصِعَةِ: «سَأَتَزَوِّجُ مَا إِنَّ تَجْدِي لِي فَتَاةً تَقْبَلُ أَنْ تَصْطَبِحَ كُلَّ يَوْمٍ بِالسَّوَادِ»، ثُمَّ طَاطَأَ رَأْسَهُ حُزْنًا وَتَابَعُ: «لَمْ تَبَقْ فَتَاةً إِلَّا وَطَرَقَتْ بِأَبَاهَا يَا أُمَّ جَبْرِيلَ لَكِنَّ الرِّفْضَ يَسْتَقْبَلُكَ مَا إِنَّ يُفْتَحَ الْبَابَ».

«إنها لعنة السواد التي طارده طوال حياته»، كررت كوكب هذه العبارة وهي تلطم وجهها وتُمزق ثيابها، والناس حولها يحاولون تهدئتها، لكن دون جدوى حتى خارت قواها وسقطت مغشياً عليها فوق قبره الرطب.

بدأت معاناة جبريل من لون جلده الفاحم، من اللحظة الأولى التي أخرج فيها رأسه إلى الحياة، إذ تلقفته الولادة أم سمير بملامح منقبضة، وهي تمسح بمنشفة قطنية على جبينه بقوة ظناً منها أن سائلاً ما يغطيه، وحينما عجزت عن ذلك، قرأت بسررها المعوذات، وبصقت في صدرها سبع مرّات. تجنبت نسوة الحي الحوامل زيارة كوكب؛ لياركن لها على مولودها، خوفاً من أن يتزامن ذلك مع «وحمهن» فيعلق شيء من لونه بأجنتهن، وفي سنوات صباه كان الأطفال يلاحقونه في الشارع ويعدّدون الأشياء السوداء اللون التي تخطر في بالهم؛ ليشبّهوه بها «كالباذنجان، والشاي، ودبس التمر.. وغيرها»، وامتد الأمر ليشمل كبار السن أيضاً، إذ اعتاد بعضهم بقصد ملاطفته على مناداته «بالفحمة»، بينما الشباب كانوا يتعاملون معه بخُبث شديد، إذ ألّبسته أمّه في صبيحة أحد الأعياد ثوباً أبيض، فأشاروا إليه بأيديهم وكفوفهم كمن يوقف سيارة أجرة عند مروره بالقرب منهم، وقالوا بصوت مُوحّد وعالٍ: «تكسي

يا أسطة تكسي!» فيما يتنمّر البعض الآخر بسخرية وهم يسألونه: «هل أرضعتك أمك قهوة بدل حليبها؟» لذلك نشأ جبريل وهو يكره كل تدرجات اللون الأسود، وحتى القريبة منه، فكرة الظلام واستخدام الفحم أو المرور بشوارع تمّ تعبيدها للتوّ، وحاول قدر الإمكان دوزنة ذوق ثيابه على ألوان محايدة، لا سواد فيها أو حتى قتامة، حطّم المرأة في غرفته، وصبغ باب بيتهم بالأبيض بدلاً من الأسود وفي الإعدادية كرة قصيدة المتنبي التي يهجو بها كافور، وفي الامتحان الفصلي سلّم ورقة الإجابات بيضاء؛ لما كان فيها من سؤال عن تلك القصيدة، ولم يكن يُطبق سماع قصة عتتر وعبلّة، والنظر في السبورة مطوّلاً كان يسبب له صُداً، ولافتات النعي السوداء المعلقة على الجدران في طريق ذهابه وعودته من المدرسة مثل فوهات بنادق موجهة إلى رأسه.

جبريل لم ير أباه إسحاق مطلقاً، إذ ذهب إلى السودان لزيارة أهله، بعد أن غاب عنهم سنوات طويلاً، قضاهما في العمل مع أقرانه، ثمّ تزوّج من كوكب وعاش معها في بيتها، لم يزر عائلته بعدها البتّة، وصله مكتوب ذات يوم يُخبره بوفاة أمّه فاضطر حينها للسفر تاركاً زوجته الحامل وحدها بانتظار عودته، رحل إسحاق منذ أن كان جبريل علقّة في رحم أمه، ولم يعد إلى الآن،

تواردت الأنباء بعد مدة قصيرة عن تعرضه لحادث سير أثناء سفره، ولم تسمع عنه كوكب بعد ذلك أي خبر.

قَطُّ جبريل ذو الوبر الأسود كان الاستثناء الوحيد في حياته، إذ كان يرى فيه أشياء كثيرة تشبهه، فكانت قطط الحي وكلابه وسكانه تلاحقه بمجرد خروجه من عتبة الباب؛ لهذا أطلق عليه اسم (أبيض)، نكاية بالجميع.

كانت رباب ابنة جيرانهم رفيقةً أحلامه العاطفية، يخطف جبريل من أمه كومة الملابس المغسولة بحجة نشرهم، ما إن يراها تهتم بالصعود إلى سطح المنزل، يلقيهم على الحبال بسرعة، ثم يتلصص بعينه الجاحظتين على رباب، يتسلل ظهرًا أيام الصيف القائظ إلى سطح منزله وينتظر طيفها، وحين يحالفه الحظ وتلتقي العيون، يقفز قلبه من فوق السور فرحًا، ويرفرف طائر الحب في فضاء مخيلته.

عزم ذات مرة بعد أن تسلح بالجرأة أن يهديها وردة بيضاء، كانت تُطل برأسها من فوق جدار الكنيسة في منطقتهم، قطفها ثم دسها بسرعة في جيبه، وهرع مسرعًا إلى بيته وصعد إلى السطح منتظرًا تحت شمس آب اللاهبة أن تخرج رباب، لكنّها لم تفعل، ظل لساعتين ينتظرها، لكن دون جدوى، حتى أحرقتة الشمس رفقة زهرته البيضاء، والتي تحوّلت هي الأخرى إلى

سوداء بفعل الشمس، حينها خرجت المُنتظرة لكن بعد فوات الأوان، دعك وردته حُزنًا ثُمَّ ألقى بها على الأرض.

في ليالي صفائه ما إن يضع رأسه على الوسادة لا يغمض عينيه إلا بعد أن يتعلق النعاس بجفونه، فهو يكره الظلام القاتم الذي يرافق إغلاقتهم، تسافر به أمنياته إلى مستشفيات التجميل، وطيف المغني (مايكل جاكسون) يتراقص أمامه، ذلك الذي دفع ملايين الدولارات لأطباء التجميل في كل مرّة غير فيها خلايا جلده من الأسود إلى الأبيض، حلم ذات مرّة أنه يسبح في نهر دجلة، وحينما انتهى من ذلك نظر إلى جلده فوجده أبيض كالثلج، ففرّ من منامه وهو يطالع جسده فأصيب بخيبة أمل كبيرة جعلته مكتئبًا لأيام. جبريل حمل قلبًا أبيض مثل خيط ضياء صباحيٍّ، وهذا ما يعرفه عنه أقرانه في المدرسة وزملاؤه في الجامعة وأصدقائه في العمل، قدره الذي فرّ منه كثيرًا جذبه مثل مغناطيس نحوه، فأخر لعنات السواد في مسار حياته أنه قُبِلَ بوظيفة على ملاك وزارة الصناعة، وحين ذهب للتأكد من الموقع الذي يجب عليه العمل فيه، وجد أنه في مصفى المدينة النفطية الكبير، وتحديدًا في معمل الإسفلت.

بعد وفاة جبريل، أكثرَ قطُّه أبيض الخروج من الدار، باحثًا عن طيف صاحبه الذي طال غيابه، فلمحه في أحد الأيام رجل

معَمَّمٌ ملتح، فجزم بأنه شيطان رجيم، وأشاع ذلك أمام أهالي الحي، فركض خلفه الصبية في مطارداتٍ ماراثونية تنتهي في العادة عند حائط بيت جبريل، حيث كان يقفز إلى الدار ويترك الصبية صفر اليدين، وهم يرددون: «هرب أسود فَرَّ أسود»، وفي إحدى المرات أقنعت الجاراتُ كوكب أن هذا القط نذير شؤم، وأنه السبب في الحادث البشع الذي تعرض له ابنها جبريل، وتوسلن إليها بإعطاء أولادهن الفرصة للقضاء عليه؛ لأنه سيجلب النحس للحي برمته، ففتحت الباب للصبية وبأيديهم عصي وشباك صيد، وحين حاصروه في زاوية بغرفة جبريل، قفز إلى الكفن الحريري الأبيض المعلق على الجدار متشبثاً به بمخالبه فعلق فيه، وتمكنوا من القبض عليه، وشنقوه بكفن جبريل، ثُمَّ علَّقوه بعمود نور عند مدخل زقاق الحي، وبقيَ لثلاثة أيام متتالية تُورجحه الريح مثل بندول ساعة يميناً ويساراً.

زنزانة رقم WC

«مُرتدّ، ابن الزانية، ابن الفاجرة»، صرخ في وجهه أحد عناصر تنظيم داعش، ثُمَّ زَجَّ به بقوة وهو معصوب العينين مقيد اليدين داخل مرحاض المدرسة، التي اتُخذت مقرّاً لهم فارتطم بالجدار، ثُمَّ قال له وهو يموج يده في الهواء كراقصة باليه: «لم يتبق من حياتك سوى يوم واحد»، ثُمَّ شهر سبائته وراح يحزبها رقبته كسكين، بعدها تابع: «سيحدد مولانا القاضي الشرعي قدّس الله سره طريقة إعدامك»، ثُمَّ انتصب كنادل في مطعم قائلاً له وهو يغير نبرة صوته متظاهراً أنه يمسك دفتر: «لدينا في قائمة الإعدامات وجبات موت شهية ولذيذة، ذبح، شنق، رمي بالرصاص، حرق، غرق. وغيرها»، ثُمَّ أردف: «راحة المرتدين هي غايتنا»، وأطلق ضحكة إبليسية، ثُمَّ أغلق الباب خلفه وغادر، صوت أقدامه وهي تبتعد عن الباب أعطت زهدي الشرطي شيئاً من الراحة، لحيته التي أصبحت كثّة جدّاً طوال فترة اختبائه، أيقظت في هذا العنصر روح السادية، والتي كانت واضحة على تصرفاته معه منذ البداية، فما هي إلا لحظات وعاد

إليه حاملاً بيده كرة عجيين، فتح الباب فرآه واقفاً عند زاوية
المرحاض وقد بلل سرواله، «هل بال على نفسه طفلنا المدلل؟»
قال وهو يقهقه ضاحكاً، «أنت في المرحاض وتبول على نفسك
يا حامي الوطن»، ثم صرخ كمن تذكر شيئاً: «ممم نسيت أنك
مقيد يا زهدي!» ثم تقدم نحوه ووضع كتلة العجين على لحيته
وضغط بقوة بيده عليها فتداخل مع الشعر، تركه ومضى، طوى
زهدي قدميه واتكأ على الحائط، فهاجمت أنفه فوراً رائحة
الفضلات واقتحمته عنوة، هاج الطعام في بطنه وماج، كاد أن
يتقيأ لكنه سيطر على نفسه، نهض بعد أن خدرت ساقاه وفقد
شعوره بهما، حاول أن يتحرك داخل المرحاض لتتحرك الدماء
فيهما، فغاصت قدمه بفضلات منتشرة هنا وهناك، فثارت معدته
وأفرغت ما في جوفها. مرّت ثلاث ساعات فبدأ العجين يجف
على لحيته مسبباً له حكةً قاتلة، حاول أن يحكها ب صدره لكنه
فشل، ألمه كثيراً تيسر العجين على الشعر وأوجعه عجزه جداً،
فجأةً بدأ يسمع صوت ثغاء في الجوار ثم اقترب الصوت كثيراً
حتى فُتح الباب وأدخل العنصر معزة معه، أمره بالجلوس على
الأرض فلم يستجب له، فضربه على بطنه فتكور على نفسه ألماً،
اقتربت المعزة الجائعة وبدأت تقضم العجين الممزوج بشعر
اللحية، فانطلق صراخه مألئاً أرجاء المكان مختلطاً مع تكبيرات

العصر، غاب عن الوعي تمامًا مع مرور أول دقيقتين من شدة الألم وخر ساقطاً على الأرض. مرّت خمس ساعات على اعتقاله، فجأةً فُتح الباب ودخل أحدهم إليه، رشّ عليه الماء فاستفاق، ثمّ قال له وهو يفكُّ عصابة عينيه ووثاق يديه: «سأغير مكانك إلى حجز خمس نجوم» هامساً في أذنه: «هذا العرض فقط للأغزاء»، ثمّ اقتاده إلى مرحاض آخر عند نهاية الممر، أدخله وأوصد الباب، جال زهدي بنظره فوجده نظيفاً خالياً من الفضلات العشوائية، تنفس الصعداء، فرك عينيه، رفع يديه إلى الأعلى ثمّ إلى الأسفل ثمّ تمطى وجلس على الأرض متلمساً بيده وجهه المتورم الخالي من اللحية والمملوء بالدم المتبيّس، فتح الصنبور فغطى الماء أرضية المرحاض، ثمّ حاول أن يرى انعكاس وجهه لكنّه فشل، فالظلام حال دون ذلك، صوت قطرات الماء، وهي تقطر داخل الإبريق بعثت في نفسه الراحة، أزاحه ثمّ فتح الصنبور مرّة أخرى ووضع فمه تحته وبدأ يشرب، حتى انطفأت الحرائق في داخله، وبينما هو يتخبّط علّا صوت الأذان بالجوار، فكّر مع نفسه كثيراً ثمّ تساءل «هل أتوضأ؟ ولكن إذا فعلت فمن المستحيل أن أصلي في هذا المكان النجس!» ثمّ استغرق في التفكير، «سأموت بعد ساعات، وأنا لم أوّد فريضة العصر، لكنّ الله يعلم أنني لم أصلّ احتراماً لديني».

مَلَأَ كَفِيهِ وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثُمَّ رَأْسَهُ وَقَدَمِيهِ، بَدَأَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ،
كَانَ فَرَحًا كَمَنْ حَصَلَ عَلَى غُرْفَةٍ فِي فَنْدُقٍ فَخَمَ، تَفَحَّصَتْ عَيْنَاهُ
الْمَكَانَ فَوَجَدَ جِدْرَانَهُ تَكْتَظُ بِأَبْيَاتِ الشَّعْرِ وَالنَّكَاتِ، نَظَرَ إِلَى
السَّقْفِ فَوَجَدَ عِبَارَةَ مَكْتُوبَةٍ بِلَوْنٍ أَحْمَرَ «هَنَّاكَ سَبِيلَ عِدَّةٍ
لِلْإِنْتِحَارِ مِثْلَ السَّمِّ وَالسَّنَقِ وَالْقَفْزِ مِنْ بَنَاءَةٍ عَالِيَةٍ، لَكِنَّا نَخْتَارُ
الزَّوْجَ وَهُوَ طَرِيقَةُ إِنْتِحَارٍ بَطِيئَةٍ، لَكِنَّهَا مُضْمُونَةٌ».

قَطَّبَ جَبِينَهُ وَاسْتَغْرَقَ فِي التَّفَكِيرِ بِزَوْجَتِهِ (إِخْلَاصٍ) الَّتِي
تَحْمِلُ مِنَ الصِّفَةِ الْإِسْمَ فَقَطْ، أَنْزَلَ رَأْسَهُ فَوَاجَهَهُ (سَيْفُونِ)
مَعَاقِ مَبْتُورِ السَّاقِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ انْظُرْ وَرَاءَكَ، التَّفَتُّ فَوَقَعَتْ
عَيْنُهُ عَلَى عِبَارَةِ اسْكَبِ الْمَاءَ بَعْدَ وَقُوعِ الْكَارِثَةِ مَكْتُوبَةٍ عَلَى
الْبَابِ الْخَشْبِيِّ الْهَرَمِ، «أَنَا فِي عَيْنِ الْكَارِثَةِ»، رَدَّدَ مَعَ نَفْسِهِ «هُمَّ
سَيَسْكُبُونَ الْمَاءَ وَلَسْتُ أَنَا، سَأَتَحَوَّلُ إِلَى جِثَّةٍ وَسَيَسْكُبُونَهُ
لِيَنْظِفُوا الْأَرْضَ مِنْ دِمَائِي»، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَضْحَكُ بَهْسْتِيرِيَا:
«نَحْنُ نُضَحِّي لِأَجْلِ أَرْضٍ سَتَبْتَلِعُنَا يَوْمًا مَا»، نَطَحَتْهُ قُرُونُ
الذِّكْرِيَّاتِ وَتَذَكَّرَ أُمَّهُ سِبَاهِيَّةً عِنْدَمَا كَانَ فِي الصِّفِّ الْأَوَّلِ
الْإِبْتِدَائِيِّ وَهِيَ تُرَدِّدُ أَمَامَ أُخْتِهِ بِغَضَبٍ بَعْدَ أَنْ يَتَبَوَّلَ دَاخِلَ
سُرْوَالِهِ شَتَاءً، «لَيْتَنِي دَقَقْتُ فِي حِسَابَاتِي وَلَمْ أُخْطِئْ، عِنْدَهَا لَمْ
أَكُنْ لِأَرَى وَجْهَ الْقَرْدِ هَذَا وَلَمْ أَنْجِبْهُ بِالْأَسَاسِ»، أَتَعَبَهُ التَّفَكِيرُ،
نَزَعَ بَنْطَالَهُ ثُمَّ غَسَلَهُ مِنَ الْبَوْلِ وَعَلَقَهُ عَلَى أَنْبُوبِ مَاءٍ يَخْتَرِقُ

المكان، قال في قرارة نفسه: «ليتك دققت في حساباتك يا أُمِّي!» جلس عند الباب وسقط في بئر النوم، لثلاث ساعات متواصلة، استيقظ بعدها على أزيز قُرب أذنه، تتبع الصوت، بحث بعينه فوجد ذبابة خضراء تحلق داخل المرحاض، «يبدو أنها دخلت من ذلك الشُّباك المكسور»، قال لنفسه، لكنه شعر بسعادة غامرة، فزَّ من مكانه خلع قميصه بعجالة ووقف على أصابع قدميه، ثُمَّ حشر القميص في فم الكسر، وراح يغني: «يا هلا بالي جاني نور وشرف مكاني» (لراشد الماجد) قال لها: «أَيَّتْهَا الملاك الأخضر كم تبقى من عمرك؟ أَمَامَكَ أسبوعان بكاملهما، أليس كذلك؟»، حطَّت الذبابة على أنفه، حولَ عينيه وراح ينظر إليها ويُحدثها، «تبدین شابة وعمرک لا يتجاوز اليومين»، طارت من على أنفه وحطت على يده، وهي تمسح جناحيها ورأسها بيديها، قال لها: «ستعيشين أكثر مني يا حقيرة يا كلبة»، ثُمَّ رفع كفه وكاد أن يهوي بها فوقها، لكنه توقف فجأة وقال لها: «أنا أمزح معك يا..»، ثُمَّ قال لها: «سأطلق عليك اسمًا يناسبك»، حكَّ فروة رأسه، رفع حاجبه، ضيقَ عينيه وهمهم، ثُمَّ صاح إخلاص وفهقه ضاحكًا «سيكون اسمك إخلاص يا عزيزتي، لكنك اسم على مسمى، فستبقين برفقتي حتى يقتلونني، أليس كذلك؟» سألها، طارت الذبابة

وحطّت عند مقعدِ المرحاضِ القذر، قال لها بحزن: «هل ستمتصين دمائي بعد موتي يا إخلاص؟ هل ستحومين فوقى لأيام كما يفعل الغربان بالجُثث؟ هل سُمثِلين بجثتي يا حبيبتى؟» حلّقت الذبابة بعيدًا عنه وحطت عند مصباح المرحاض، وبينما هو يراقبها امتد إليها لسان وزغ كان يختبئ خلف المصباح فالتهمها بلمح البصر، عندها جن جنون زهدي فقفز وهو يضرب الوزغ بينطاله المبلل فسقط على الأرض بعد أن قتله، ثمَّ بسرعة برق شق بطنه بظفره وأخرج الذبابة التي كانت لزجة تلفظ أنفاسها الأخيرة، فغسلها بالماء ووضعها على كفه وهو ينفخ عليها بروية حتى استعادت حركتها، ثمَّ طارت بصعوبة وسقطت على الأرض، فوضع سبابته أمامها فصعدت عليها، ثمَّ قربها من فمه وقال لها بعيون دامعة: «لقد أنقذت حياتك تَوًّا، أنا أحبك كثيرًا، ليتك تعلمين كم أنتِ غاليةٌ على قلبي، أنتِ سلوتي في وحدتي، أنتِ صوت الحياة الأخير الذي سأسمع موسيقاه قبل موتي ورحيلي»، ثمَّ قال لها هامسًا كَمَنْ يُسرُّ شخصًا: «سأخبرك بأمنيّاتي قبل أن أُعَدَم، لكن إِيَّاكِ أن تستهزئي بي يا إخلاص، أمنيّتي الأولى جوربًا محشوًّا بصمغ^(١)

(١) **جورب الصمغ:** هي طريقة تقليدية يستخدمها مدمنو المخدرات وتمثل بحشو جورب بمادة الصمغ واستنشاق رائحته فتعطي نشوة مقاربة للتعاطي.

أستنشقُ عبيره فأطير بعيداً عن هذا الخراء الذي يقابلني فأنسى همومي ومصيبتي، والثانية أن أموت يوم الثلاثاء، يوم سعدي والذي نجوت فيه من عبوة لاصقة كانت مثبتة أسفل سيارتي، وأمنيّتي الثالثة أن أُدفن قُرب تنور الطين وسط قريننا، والذي لا يخلو من النساء الجميلات على مدار اليوم، فحقيقةً أنا لا أحب الاختلاط ببقية الموتى في المقابر، فأخلاق بعضهم قد تكون سيئة، وبعضهم مجرمون وآخرون قتلة وأنا أخاف أن أُقتل على يدهم مرّة ثانية»، وأطلق ضحكة مُجلجلة طارت على إثرها الذبابة واستقرت على مقبض الباب الذي فُتح فجأةً فهربت الذبابة بعيداً وزهدي يلاحقها بنظره بحزن، ظهر أمامه أربعة مسلحين مُدجّجين وملثمين، يحملون بنادق على ظهورهم تغطي وجوههم قلنسوات سوداء مختوم في أعلاها شعار الدولة الإسلامية باللون الأبيض، سحبه أحدهم من شعره وهو يسبه ويشتمه، سحلوه إلى وسط ساحة المدرسة عند سارية العلم وصوت الرصاص يعم المكان، فعمليات تحرير نينوى قد مضى على انطلاقها أشهر قليلة، «الله أكبر» صاح أحدهم شاهراً سبابته أمام كاميرا تصور ما يجري، ثمّ قال وهو يتلو ورقة بيده: «لقد حُكم عليك أيها المرتد بالإعدام رمياً بالرصاص وهذه رسالة إلى كل الخونة من أمثالك، أن القصاص قادمٌ لا محالة»، ثمّ تلاّ

الآية الكريمة ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ راحوا جميعاً يكبرون ويرفعون بنادقهم إلى الأعلى، وبينما هم يستعرضون أمام الكاميرا، تسلل عناصر من جهاز مكافحة الإرهاب العراقي إلى المدرسة وأمطروهم بوابل من الرصاص أحالهم إلى جثث برمشة عين، وانتشروا في أرجاء المبنى والمروحيات تؤمّن لهم المكان، فكّوا وثاق زهدي الشرطي ونجا من موت محتم. بعد مرور اثني عشر يوماً على تحريره ومنطقته، وبينما هو جالس على الرصيف وحده يسترجع ما جرى له بسبب زوجته إخلاص التي أصرت عليه يوم اعتقاله أن يأخذها إلى السوق؛ لتشتري لها حمالة صدر مزركشة، بالرغم من معرفتها أنه مطارد ومطلوب للتنظيم، لكن وقتها قالت له: «هيا يا حبيبي لن نتأخر ولن يتعرف عليك أحد فأنت تبدو واحداً منهم، فمظهر لحيتك وشعرك لن يجعلهم يستدلون عليك»، استقلّوا السيارة وما هي إلا مئات الأمتار حتى فوجئوا بسيطرة نُصبت في الشارع العام، طالبوه ببطاقته الشخصية ودققوها بالحاسوب الخاص بالمطلوبين فانقض عليه عناصر التنظيم من كلّ جانب وأحاطوا بسيارته، وإخلاص تبكي وتنوح وسط الشارع.

مرّت قواتٌ من الجيش متجهة نحو عمق المدينة، قطعت على زهدي ذكرياته السوداء التي تجتّرها ذاكرته، نهض ملوحاً لهم بيده وهو يصرخ «الله ينصركم إخوتي على القوم الظالمين»، ثمّ شكل علامة النصر بإصبعيه ورفعها عاليًا، ثمّ عاد مستغرقًا بتفكيره أيام تخفيّه واختبائه في قبو بيت عمه لعامين ونيّف بعد مطاردة عناصر داعش له، ثمّ انتبه إلى صوت أزيز يعرفه تمامًا، نظر إلى إصبع السبابة التي ما زالت تشارك الوسطى برسم علامة النصر فإذا بالذبابة الخضراء تقف عليها، صاح بدهشة وفرح: «إخلاص مستحيل!»، طارت ثمّ حطّت على الإصبع نفسه، وكرّرت ما فعلت ستّ مرات ففهم زهدي ما تريد، فخفضها وبقيت الوسطى لوحدها، عرف أنها أوصلت له رسالة وهي أنّ الواقع في العراق بعد ٢٠٠٣ يمثلّه إصبع وحيد، طارت الذبابة ثمّ سقطت بعد مترين ميتة، حملها زهدي وهو يبكي، فقبل أيام كاد أن يقتلها حسدًا لأنها ستعيش أكثر منه، لكن للأقدار سطوة، ذهب قرب تنور القرية، وحفر حفرة بيده ودفنها، ثمّ عاد إلى منزله، وكتب وصيةً جاء فيها، «قرب التنور ادفنوني وإن لم تفعلوا ستُفلق روحي التنة حياتكم وتطاردكم لعنتي إلى يوم يبعثون!».

الإصبع السادس

ما إن سمعت أُمِّي صرير عجلات السرير المتحرك، خارجًا من غرفة العمليات بعد أن استؤصلت زائدتي الدودية، زغردتُ فرحًا بسلامتي، هرعتُ خارج الغرفة بعد أن استفتتُ، ثُمَّ عادتُ مُسرعةً ويدها قِدر طعام مكفّنة بمنشفة سميكة تتصاعد منها الأبخرة، قلتُ لها ولساني يتعثر بالكلمات: «لا أريد طعامًا يا ست الحبايب أريد أن أسافر إلى تركيا، برحلة سياحية أُغيّر فيها الأجواء، وأرّفه فيها عن نفسي قليلًا، وأعيش لحظات من العمر»، نزعت أُمِّي أقراطها الذهبية ووضعتها داخل كفي وأغلقتها، ثُمَّ قالت وهي تُمسّدُ على شعري المنفوش: «لن أترك شيئًا في نفسك يا رجب ما دُمْتُ حية».

لم تتوقف عينا رجب ورأسه عن الدوران، ما إن فعّل راداره الذكوري لحظة وصوله شارع الاستقلال وسط إسطنبول، امتلأت شاشة الرادار بالنقاط الخضراء وعلا أزيزها فورًا، لكن الصورة كانت مليئةً بالاهتزازات، فالبرد القارس جعله يهتزُّ كمحرك دراجة نارية، يحشو فمه بحبات الكستناء بين فينة

وأخرى؛ ليشغل أسنانه عن الاصطكاك، فتتضح الصورة قليلاً، ثمَّ يهاجمه البرد مجدداً ما إن يرى سيقاناً بيضاء تتمشى بغنج أمامه، وكأنها في فصل الصيف، توقف وهو ينفخ داخل كفيهِ من شدة البرد، عند رجل مُسن يعرض بصينية أمامه محاراً محشواً بالأرز، ومؤطراً بحبات الليمون، قطَّب جبينه وسأل الرجل عن بضاعته، فأجابه العجوز بالتركية: (بو ميديا)^(١)، فرك رجب سبابته مع إبهامه مستفهماً عن سعرها، فأجابه: «بير ليرا»، أيّ بليرة واحدة للقطعة، اشترى واحدة، فتحها ورشَّ فوقها الليمون، رفع رأسه وأفرغ الأرز بفمه، وبينما هو.. وقعت عيناه على لافتة بالعربية وسط زحام اللافتات التركية، مكتوب عليها باللون الأصفر الفاقع (محل لقراءة الكفِّ وقراءة الفنجان)، تقدم بخطوات سريعة نحو المحل، ثمَّ تتبَّع السهم الذي يشير إلى الأعلى، صعد الدرج وهو يشتعل حماسة، كان متعطشاً لرؤية مستقبله، فهو يبحث منذ زمن طويل عن أمل يحقق له حلمه بالسَّفر إلى أوروبا، فسبب قدومه الحقيقي إلى هنا هو البحث عن «مُهرَّب» يعقد معه اتفاقاً ليُقله إلى

(١) بو ميديا: بو: وتعني هذا بالتركية. وميديا أو بلح البحر من أكثر الأكلات شهرة في تركيا، وترجع أصول الأكلة إلى عهد السلطان محمد الفاتح والتي يتم استهلاكها بكثرة إلى يومنا هذا.

اليونان، قابلته عند نهاية الدرج فتاة أمامها لافتة الاستقبال، قالت له بعد الترحيب بلكنةٍ سوريةٍ وهي تحشر مبسم الشيشة بفمها: «من وين الأستاذ؟» فابتسم لها ببلاهة وقال: «من العراق»، ثُمَّ فَتَحَ كَفَّ يده قائلاً: «أريد قراءة كفي»، فأشارت له بالجلوس على كرسيٍّ فخم، فجلس مُتَفَحِّصًا المكان، أَسَكَّتْ صراخَ التوتر في قلبه بعد أنْ تَحَوَّلَ إلى غيمةٍ بشريةٍ تُمَطِّرُ عرقًا، رَنَّ الجرس فأَسْرَعَتِ الفتاة إلى الغرفة الوحيدة في المكان، ثُمَّ خَرَجَتْ برفقة كتلة كبيرة من اللحم المترجرج، قصيرة كقنينة غاز وممتلئة كبرميل نفط، حقن (البوتكس والفلر) تقفُ حامية لوجهها من نيل الزمن، اقتربتا من رجب ثُمَّ قالت السكرتيرة وهي تُشير إلى الكتلة: «أَعْرِفُكَ بالسيدة معارج، بركة هذا المكان، مكشوفة الغطاء وثاقبة الدهاء، ستقرأ لك طالعك كما تقرأ كتابًا مفتوحًا، وسترى ما يخبئه لك الزمن، خصوصًا أنها استحدثت طريقة جديدة في قراءة الكف».

الحَلَقُ الذي يخترق أنفَ العرّافة، أوّل ما شَدَّ انتباهَ رجب، رأسُ الثور بقرنيه الطويلين والموشوم على صدرها الذابل جعله يزدرد ريقه عدة مرّات قبل أنْ ينطق مُرَحِّبًا بها، جلست أمامه على الكرسيّ، فبرزت طيّات كرشها الست، راسمةً

تضاريس سلسلة جبلية على قميصها الفيروزي، الذي تقاوم أزراره بكل ما أوتيت من صمود هروب بطنها إلى الخارج، أومأت للسكرتيرة بثقة دون أن تنطق بحرف واحد، أمرته الأخيرة أن ينزع حذاءه وجوربه الأيسر، قطب جبينه قائلاً: «وما دخل قدمي بقراءة الكف؟»، ضحكت السكرتيرة ثم أشارت إلى العرافة متباهية بها، «هي الوحيدة في هذا العالم التي تقرأ كف القدم، لا منافس لها مطلقاً، جدتها راجيف الهندية -لروحها السلام- هي من علمتها هذا العلم قبل أن تغادر عالماً»، فالتفتت معارج إلى صورة بقرة مؤطرة بالورد الأبيض معلقة على جدار الغرفة، وانحنت لها برأسها خاشعة وتمتمت بوضع كلمات. انصاع رجب لأمرها ونزع حذاءه ثم جوربه العفن، فصدمت العرافة وسكرتيرتها مما رأتا، «يا إلهي ستة أصابع!» صاحت السكرتيرة وهي تنظر بدهشة نحو معارج، فضحك رجب بخجل قائلاً: «لدي تشوه ولادي، هل أغير القدم؟» سائلاً معارج، فرفعت حاجبيها رافضة بشدة، سحبت قدمه وقربته بخشوع نحو وجهها، ثم شهقت بقوة، كاد رجب على إثرها أن يتغوط في سرواله من شدة الخوف، «ماذا هناك يا سيدي؟» سألها مذعوراً، فنطقت لأول مرة باللغة العربية منذ لقائهما: «بركاتك بركاتك بركاتك»، سألها رجب: «هل

تتكلمين لغتي؟» فأجابته نعم، وهي تدندن أغنية فات المعاد
لأم كلثوم، ثم تابعت: «أحبُّ اللغة العربية كثيرًا لقد تعلمتها
من الأفلام المصرية منذ صغري»، ثم انقضت على قدمه تُقبِّل
أسفلها مُتلمسةً بلسانها تشققات كعبه، والتي تصلح أن تكون
وكرًا للقوارض، دغدغته قُبلايتها فانطلق يقهقه ضاحكًا محاولًا
أن يسحب قدمه من بين يديها، فقالت بجديَّة: «هنيئًا لك رجب
هذا الاختلاف، الذي سيُغيِّر حياتك إلى الأبد، فهذا الإصبع
يقابله الكوكب أورانوس، وأورانوس في علم التنجيم والفلك
يقابله عرش فخم سيجلس عليه من يمتلك هذه الصفات، كل
إصبع من هذه الأصابع يمثل كوكبًا، ونادرًا بل يكاد أن يكون
مستحيلًا، أن تجتمع الكواكب المؤثرة بقدم واحدة، إلَّا أولئك
المحظوظين الذين سيكون لهم شأن في المستقبل القريب»،
تعجَّب رجب من كلامها وسألها بفم مفتوح: «أيُّ عرشٍ
سأجلس عليه يا سيدة معارج؟» تفحَّصت العرَّافة إصبعه
السادس والذي تميز عن بقية أصابعه بكُبر حجمه وتفلطحه،
قالت له وهي تشيح بنظرها عنه: «هذا العرش يخافه الجميع،
لكنَّك ستكون أهلًا له يا رجب، فأنت إنسان قويٌّ وعزيمتُك
بالوصول إليه جبارة، ما عليك إلَّا السعي والإصرار، وأحذرك
من الهروب، فالهروب صفةُ الجُبَّاء وأنت شجاع يا رجب»،

وأردفت: «العالم كله في قدمك يا عزيزي»، ثُمَّ انطلقت تُغني لرضا العبد الله «حبيبي سامع عد بالأصابع» بعد أن استعرضت له بقية أصابعه، وما يقابلها في حياته العاطفية والرومانسية وعدد سنوات حياته ووضعه الصحي بعد عشرات السنين.

أنهت معارج قراءة طالع رجب، ثُمَّ استدارتْ عائدةً إلى الغرفة، فوقعت عيناه على وشمٍ أسفل ظهرها مكتوب باللغة العربية بخط الرقعة «لا أريد الحياة ولا أريد الموت»، كاد أن يسألها ماذا تُريدين إذن؟ لكنّه تراجع عن ذلك، بعد أن استغرق في التفكير بكلامها، خصوصاً أنه من النوع الذي يؤمن بالطالع والحظ والأبراج، نسي أن يسألها هل سيسافرُ إلى أوروبا وهل سينجح في ذلك ويتحقق حلمه، لكنَّ السكرتيرة اعتذرت منه بلُطفٍ قائلةً له: «إنَّ وقتك قد انتهى، وعليك المغادرة، فالوقت تأخر وعلينا أن نُغلق»، انشغل بتفكيره وهو يهبط على السلم بما قالته له العرافة، «إذا سأصبح ذا شأنٍ في بلادِي»، قال لنفسه وهو يتسّم ثُمَّ تابع: «وسيهابني الناس جميعاً، والأهمُّ من كل ذلك أني سأجلس على عرش»، ثُمَّ ترجم عقله مفردة العرش على أنّها كرسي السلطة، ثُمَّ سار في حواري إسطنبول، وهو ينسج معطفاً من أحلام اليقظة، التي انتهت عند السيارات المظلمة والمُصفحة والحمايات والشهرة واللقاءات التلفزيونية.

عاد رجب من السفر وكلُّه يقين بكلام العرّافة معارج، تراجع
نهائياً عن فكرة رحيله إلى أوروبا، ترجّل من التاكسي رافعاً رأسه
بشموخ مسؤل، فغاصت قدمه ببراز طازج وسط الطريق، فأفرغ
ما في جوفه من طعام، ثُمَّ قطع الشارع وهو يسير مرحاً،
فانفجرت عبوة ناسفة كانت مزروعةً على جانبه، استهدفت رتلاً
للقوات الأمنية، فاعتُقل رفقةً عدد من الناس الموجودين في
مكان الحادث، أُدخل إلى التوقيف المؤقت، ثُمَّ نُقل إلى شعبة
الاستخبارات للتحقيق معه، استجوبه الضابط فلم يتوصّل معه
إلى نتيجة، أقسم له رجب إنه قد عاد توّاً من رحلة سياحية في
تركيا، فابتسم له الضابط وهو يغمز له بعينه: «وسنأخذك نحن
أيضاً في رحلة سياحية»، ضغط الأخير على زرٍّ بقربه، فدخل
شخصان مفتولا العضلات والشارب، اقتاداه معهما وقبل أن
يخرُجا من الغرفة، استوقفهم الضابط آمراً: «ابدءا معه بكرسينا
الودود، وإن لم يُجد ذلك نفعا، مرّاه على بقية الألعاب»، أدخلوا
رجب في غرفة مظلمة نزعا عنه بنطاله، أدارا مؤخرته وأجلساه
عُنوة على قارورة كولا زجاجية، فصاح بصوتٍ هزّ أرجاء
المكان، لحظتها مرّ طيف العرّافة معارج وهي تُلوح له بيدها
وتقول له بخبث: «ألم أقل لك إنك ستجلس على عرش
يا رجب!!».

قلب بقرنين

رَفَعَ قنَاع الأوكسجين عن وجهه، فتسارعت أنفاسُه كعدّاء في مضمار ركض، احمرّت عيناه، وجفَّ ريقه، وبدأ يسعل ويشهق بقوة، مربكًا هدوء غرفة الإنعاش، هرعت ابنته إليه بعد أن رفع يده المرتجفة وأشار إليها أن تقترب، بصوت مبحوح أمرها أن تأتيه بورقة وقلم ففعلت، دَوَّن عدة سطور، ثم طوى الورقة وناولها لخمائل ابنته الوحيدة، أول كلمة قرأتها بعد أن فتحتها (وصية)، دَوَّن تحتها «إني المواطن إدريس الحاج فتحي، أتبرع بكامل أعضائي البشرية بعد موتي لإخوتي في الإنسانية، عدا خصيتيّ، وذلك رغبة مني بحرمان البشرية من نسلي»، صاح مقياس الأوكسجين الذي يعضّ على سبابته مُحذّرًا من تدني مستواه، والذي بدأ يلامس حدَّ الخطر، أعادت ابنته قنَاع الأوكسجين فهدأ كل شيء، أبلغت الفتاة الكادر الطبي المسؤول عن وصيته، فأثنوا على هذه الخطوة، وبينما هي تراقبُ وضعه بقلق، ارتجَّ جسده بقوة ثمَّ سكن، وأكد صراخ الأجهزة المربوط إليها رحيل والدها. هَرَعَ الجراحون إلى

الجُثَّة، ونقلوها إلى غرفة العمليات فوراً وبدأوا بإخراج الأعضاء وحفظها في بنك مخصص لهذا الغرض، اشترطت ابنته على المستشفى أن تأخذ القلبَ معها، وتتبرع به لأحد أبناء بلدها؛ ليبقى نبض أبيها في بلده مستمراً وقریباً منها. بعد أقل من نصف ساعة أعلن التلفزيون الرسمي عن وفاة المسؤول الكبير في الدولة، مضيفاً أن جثمانه الطاهر سينقل يوم غد من إيطاليا على متن طائرته الخاصة إلى بلده ليواريه الثرى، خصوصاً وأنَّ بلدَ المرحوم (رحمه الله وطيب ثراه) لا يمتلك مستشفى نموذجياً بإمكانه علاج أبسط الأمراض. بعد انتشار الخبر ناح النائحون رياءً، ولُطِمت الوجوه وشُقَّت الجيوبُ نفاقاً، ومَرَّغَ حاشيته رؤوسهم بالتراب أَلَمًا، وتُتِفَت الشعورُ استعراضاً، خصوصاً أنَّ الإعلام يُصور المصاب الجلل وينقل الحدث بشكل مباشر، تُنقل الجُثمان ثم ووري في الثرى، فوقف أحد وعَاط السلاطين فوق قبره وألقى خطبة انتهت بأن الفقيد شهيد؛ كونه مات مبطوناً وفي بلاد الغربَة أيضاً، ثُمَّ أكمل الواعظ خطبته، مؤكِّداً فيها أنَّ المرحوم يتجوَّل الآن في الفردوس الأعلى وحوَلَه الحوريات بفساتين بيضاء.

سَلَّمَت خمائل قلب أبيها إلى أحد المشافي الحكومية، ليُغرَس في صدر متلقٍ بحاجة إليه.

انتهى مؤذن مسجد المدينة الكبير من الأذان، والإمام جالس يتلقط الأوساخ الصغيرة الملتصقة بسجاد المسجد ويحشرها في جيبه، مُتَظَرًّا إقامة صلاة الفجر، فجأةً شهق بقوة، ثُمَّ هوى على وجهه مَغشياً عليه، فنُقل إلى المستشفى وأودع في العناية المشددة، أُجريت له الفحوصات فبين أن قلبه يلهث، وما هي إلا ساعات قلائل ويستكين في صدره متوقفاً. أجرى مدير المستشفى اتصالاً عاجلاً مع ابنة المسؤول المتوفى، وأخبرها أن قلب أبيها يتوافق مع أنسجة رجل دين، أُدخل اليوم إلى المستشفى، وهو بحاجة إلى زراعة قلب على عجلة، ترددت في بادئ الأمر، خصوصاً أن والدها كان علمانياً بامتياز، وتتقاطع أفكاره مع هذه الشريحة، لكن الطبيب أوضح لها أن القلب المحفوظ في البنك، قد يتلف خلال أيام إن لم يُزرع في مُتلقٍّ ما؛ لكثرة انقطاع التيار الكهربائي عليه، فوافقت مُرغمة. نُزع قلب الإمام العامر بالإيمان، واستُبدل بقلب كان الأجراً والأقوى في ما مضى على اختلاس أموال الشعب، وعقد صفقات الفساد، ومساومة السياسيين، وتأسيس مافيات فتكت وما زالت بمعارضيتها، استيقظ الإمام من العملية وثمة شعور غريب يسيطر عليه، نظر إلى الممرضة التي كانت تمسك بيده لقياس ضغط الدم، ثُمَّ غمز لها، أكملت قياس ضغطه، وهي تهمُّ بالمغادرة صفعها على مؤخرتها وتظاهر بالنوم!

أُقيمت المولديات، ونُحِرت الذبائح في باحة المسجد بعد عودة الإمام إليه سالمًا، همس بأذن خادم المسجد، وهو يعيث بلحيته أمرًا إياه أن يأخذَ أحد الخراف التي ذُبِحت على سلامته إلى بيته من دون علم أحد، وأن يحرص على انتقاء الأكبر والأثقل وزنًا، ففعل. انتهت مراسيم الاحتفال بعودة الإمام، وحانَ وقتُ الصلاة بعدما نادى المنادي، توجَّه الإمام إلى محلات الوضوء ليُجدد وضوءه، فسبقه المصلون إلى الداخل، وبينما هو يهيمُ بالدخول وقعت عيناه على نعلٍ من جلد طبيعي يبدو جديدًا وغالي الثمن، نظر إلى ساقيه اللتين تبرزان من تحت ردائه الأبيض القصير، ثمَّ أكمل طريقه إلى الداخل، أمَّ المصلين في صلاة المغرب، فقرأ لهم في الركعة الأولى سورة الكوثر بعد الفاتحة، ثمَّ في الثانية سورة العصر. أكمل صلاته على عَجالة وخرج مُسرعًا، ارتدى النعال الجلدي الجديد وترك نعاله المهترئ، ثمَّ أسرع الخطى إلى بيته، صادف اليوم التالي يوم الجمعة، فاعتلى المنبر وتحدَّث عن فضل الصدقة، وحثَّ المصلين على التبرع لإغاثة الفقراء والمساكين، امتلأ عقب انتهاء الصلاة، جوف صندوق التبرعات بالأموال، فأخذ المبلغ كلَّه إلى بيته، بحجة توزيعه بنفسه على المحتاجين، وبقيَ يتحدَّث كلَّ جمعة عن فضل الصدقة حتى اشترى سيَّارة رباعية الدفع،

ثُمَّ افْتَتَحَ مَحَلَّ عِطَارَةٍ، وَخَطَ لَافِتَةً يُعْلَنُ فِيهَا عَنِ الْبَدْءِ بِتَرْقِيَةِ النَّاسِ رَقِيَّةً شَرْعِيَّةً، بَعْدَ أَنْ أَشَاعَ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ رَأَى الرَّسُولَ مُحَمَّدًا (ﷺ) فِي الْمَنَامِ يَمْسَحُ عَلَى وَجْهِهِ قَائِلًا لَهُ: «زَكَرِيَا... رَقُّ النَّاسِ يَا زَكَرِيَا»، وَأَخَذَ يَصِفُ لَهُمُ الْوَصْفَاتِ الْعَشْبِيَّةَ الَّتِي يَبِيعُهَا لَهُمْ بِأَسْعَارٍ خَيَالِيَّةٍ، عَجَّ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرِ بِالْمُسْتَوِلِينَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَمْنُوعًا، إِذْ أَبْرَمَ اتِّفَاقًا مَعَهُمْ يَقْضِي بِأَخْذِ نَصْفِ الْوَارِدِ مُقَابِلَ السَّمَاكِ لَهُمْ بِالتَّسْوُلِ أَمَامَ الْبَابِ الدَّاخِلِيِّ، شَاعَ صَيْتُهُ مُرْقِيًا، وَبَدَأَتْ النَّاسُ تَتَوَافَدُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ الْمُدُنِ وَالْأَقْطَارِ.

بَعْدَ مَرُورِ عَامٍ أَصْبَحَ الشَّيْخُ زَكَرِيَا مِنْ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ، وَتَحَوَّلَ حَالُهُ كَمَا يَتَحَوَّلُ الْمُرَشَّحُ الْبَائِسُ بَعْدَ فَوْزِهِ فِي الْإِنْتِخَابَاتِ، مِنْ شَخْصٍ فَقِيرٍ هَلْفُوتٍ إِلَى ثَرِيٍّ، يَحْلِفُ الْجَمِيعُ بِرَأْسِهِ وَبِجَبِيهِ. مَرَّتْ خَمْسَ سَنَوَاتٍ عَلَى عَمَلِيَّةِ زِرَاعَةِ الْقَلْبِ، اتَّكَأَ الشَّيْخُ زَكَرِيَا وَحَوْلُهُ الْمُرِيدُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ بَرَكَتِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَعْطُرُ رَقْبَتَهُ بِالْمَسْكِ، سَكَتَ الْجَمِيعُ بَعْدَ أَنْ تَنَحَّنَحَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنْ قَلْبِي يُعَلِّمُنِي بِقُدُومِ شَخْصٍ عَزِيزٍ»، ثُمَّ تَسَاءَلَ مَعَ نَفْسِهِ مَنْ يَكُونُ؟ مَرَّتْ مَدَّةٌ لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ عَلَى ذَلِكَ، ذَاتَ يَوْمٍ تَوَقَّفَتْ سَيَّارَةٌ مَظْلَلَةٌ أَمَامَ عِطَارَتِهِ، وَتَرَجَّلتْ مِنْهَا امْرَأَةٌ يَرِافِقُهَا شَخْصَانِ، تَبْدُو عَلَى مَلَامَحِهِمَا الْحَازِمَةَ أَنَّهُمَا حَارِسَانِ لَهَا، دَلَفَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَحَلِّ، وَالشَّيْخُ مَشْغُولٌ بِضَرْبِ طِفْلةٍ عَلَى ظَهْرِهَا بَغِيَّةٍ

إخراج الجنّ من جسدها، أكمل رُقيته وحُمِلت الطفلة على أكتاف أبيها بعد أن غابت عن الوعي، نظرت السيدة إلى الشيخ بعينين يترقق منهما الدمع، ثُمَّ أَمَرَت حارسها بالخروج، قالت له وهي تمسح دموعها: «كيف حال قلب أبي؟» أشاح الشيخ بنظره عنها وهو يشير بيده إلى لافتة مثبتة على الجدار مكتوب عليها «لا نستقبل السفارات»، رفعت حاجبها ثُمَّ قالت له: «أنت بمثابة أبي يا شيخ»، فبصق على الأرض وقال: «لو كنت ابتني لذبحتك»، فعَرَفَتْه بنفسها، فأنكر أَنَّ القلب الذي في صدره هو قلب أبيها، وأقسم وهو يشير إليه أَنَّهُ قد اشتراه من الهند ويعود لامرأةٍ داس الثور في بطنها وهي تسجّد له فماتت، وباعت عائلتها أعضائها، هزت خمائل رأسها حزناً ثُمَّ غادرت المحل، وهي تردد بصوت مخنوق «حسبي الله ونعم الوكيل».

بعد أيام قلائل انطلقت تظاهراتٌ تشرين في العراق، وعمّت الهتافات الشوارع، وبدأ القمع الممنهج يحصد أرواح الشباب العزّل، التحق مهند بن خمائل الأكبر بالمتظاهرين، لم تغمض عينٌ كاميرا هاتفه عن البثّ المباشر من فوق المطعم التركي وسط بغداد إطلاقاً، تلقى تهديدات من أصدقاء جده السياسيين البارزين لكن عبثاً، حتى استقرت في صدره قبلة دخانية، نُقل

على إثرها إلى خارج العراق، وبقي هناك فاقداً للوعي، أخبر الأطباء والدته أنه يحتاج إلى مُتبرِّع يهبه قلبه شريطة أن تتطابق الأنسجة، مؤكدين أن الوقت ليس بصالحه.

كعادته استيقظ الشيخ زكريا من نومه في الثانية عشرة ظهراً وهو يتمطى، حشر سواكه بفمه ليستخرج من بين أسنانه ما علق بها يوم أمس من وليمة كانت مقامةً على شرفه بعد أن وظف قريب مسؤول في الدولة إماماً وخطيباً في أحد المساجد، وهو لم يكمل دراسته الابتدائية، بعد أن زاد حسابه المصرفي عدداً من الأصفار، فيما يحتسب كل أعماله التي يقوم بها صدقة لوجه الله تعالى، وفي حال استيقظ ضميره يعيده إلى سباته، بضربه برزمة دولارات، فيفقد وعيه ويعود إلى غيبوبته. رنَّ هاتفه، فكان مدير أعماله الخاص على الخط، يخبره أن هناك حملة خيرية لجمع الأموال؛ لبناء دار للأيتام عند الساعة الثالثة عصرًا، فتحجج أن قدمه تعاني من آلام مبرحة لأنه أحيّا ليلة أمس صلاةً وتهجدًا، ثم تابع مدير أعماله قائلاً: «هناك أيضًا جلسة حوارية للتعايش السلمي وحوار الأديان عند الرابعة والنصف من هذا اليوم»، فاستفهم الشيخ عن أجور حضور الجلسة فأجابه: «إنها ألف دولار»، ففقهه الشيخ ضاحكًا باستهزاء ثم قال: «ألف دولار فقط!» ثم أردف:

«اعتذر منهم وقل لهم إني أشعر بدوار شديد، وأعاني من فقر دم حاد نتيجة صيامي يومي الاثنين والخميس»، وقبل أن يقفل الشيخ الخط وينهي المكالمة، وجد مدير أعماله دعوة قد سقطت سهواً فنبهه عليها قائلاً له: «إن هناك متبرعاً يريد لقاءك بعد نصف ساعة من الآن»، إذ اختارك من بين جميع رجال الدين، ليكلفك بناء مسجد خُصَّصَ له مبلغ مائتي ألف دولار، ففزع الشيخ زكريا من فراشه، ارتدى جلبابه الأبيض ووضع عمامته الخضراء على رأسه، بعد أن تذكر أنه بحاجة إلى خمسين ألف دولار ليكمل بناء عمارته التي توقف العمل بها منذ مدة طويلة، بعد أن شحَّ رزقه وانطلق وهو يردد مع نفسه بخشوع الآية الكريمة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ثُمَّ ذهب للقاء المُحسن. شرع الشيخ زكريا في بناء المسجد بعد أن تسلم الدفعة الأولى من المتبرع، وفي الوقت ذاته استأنف العمل بعمارته التجارية، والتي خط على واجهتها باللون الذهبي (عمارة المتقين).

بعد نفاد الأموال التي قبضها من المُحسن، اتصل به ليكمل له بقية المبلغ وهو يؤكد له أنَّ العمل في المسجد يسير بخطى متسارعة نحو الإنجاز، فحدد المتبرع موعداً لتسليمه الدفعة الأخيرة. جلس الشيخ زكريا في محراب مسجده، وأصابعه

تداعب مسبحته التي لا تفارقه، ومخيلته تتجول في الطابق الخامس من عمارته التي تحتاج إلى أثاث، جاء سكرتيه الشخصي يخبره أنَّ المُحسن ورفاقه قد وصلوا، فأشار له أنَّ يتفضلوا، جاؤوا حاملين معهم علبة كعكٍ تحمل صورته وهو يعتلي المنبر ويده سيف، ابتهج الشيخ وأجهز عليها بعد أن دسَّ تكملة المبلغ في جيب جلبابه، وبينما هو ينظف لحيته من قُتاتها، دخلت امرأة متشحة بالسواد تضع خمارًا على وجهها، فغض بصره وهو يصيح عليها: «مُصلى النساء في الطرف الآخر من المسجد يا أختاه»، فقالت له وهي تكشف عن وجهها: «يا مولانا الشيخ لقد جئنا لنسترد أمانتنا التي في صدرك»، فصُعق ما إن رأى خمائل ابنة المسؤول الذي وهبه قلبه، حاول أن يقوم من مجلسه، فلم تسعفه قدماه بعد أن بدأ مفعول المخدر يسري في جسده، الذي كان قد وُضع في خلطة الكعك، وقبل أن تنبس شفتاه ببنت كلمة، رحل في نوم عميق جعله يرجع إلى الخلف مستلقيًا على ظهره مغشيًا عليه كأنه جثَّةٌ مضى على موتها ساعات.

استفاق الشيخ زكريا من تأثير المخدر، ورأسه يسيطر عليه الصداق والدوار، جال بنظره متفحصًا المكان، فصُعق، وسافرت ذاكرته إلى اليوم الذي زُرِع له فيه القلب، لكنَّ الألوان كان قد فات، رأى شابًا على السرير الذي بجانبه يدور حوله

الأطباء يُشَمِّرون عن سواعدهم استعدادًا لعملية ما، وبينما هو تحت تأثير الصدمة شعر بوخزة بيده تبعها إحساسٌ بتدفُّق سائل بارد في عروقه، وصوت بعيد يحثُّه على أن ينطق الشهادة. بعد أسبوع وجدت جثة الشيخ زكريا عند مجرى مائيٍّ على أطراف المدينة منزوعة القلب! أُجريت العملية لحفيد المسؤول، وجسده يرفض قلب جدّه الأسود ويلفظه في كل مرّة، استمرّت المحاولات لكن دون جدوى، طافت روحه إلى بارئها، فوجدت الممرضة تحت وسادته ورقة مكتوبًا عليها (أشهد أن لا وطن إلا العراق).

جُنْد إبليس

على نعليلها تجلس عريفة بزهوٍ وكبرياء أمام باب بيتها، تمامًا كتمثال بوذا، تفوح منها رائحة السجائر والقوة والسطوة، عيناها الخضراوان وشعرها الأشيب ورداؤها الأسود تضفي عليها حضورًا مهيبًا، كُفُّها الضَّخْم بإمكانه سحقُ أيِّ شخصٍ قد لا يروقه، تتحلق كلُّ يوم حولها نساء الحارة كالجراد على النور، يستمعنَ إلى قصصها ومآثرها بأفواهٍ مفتوحةٍ وتعجب وكثيرٍ من الخوف، يتودذن لها كلُّ يوم درءًا لشرها المستطير، يتنافسنَ فيما بينهنَّ للفوز برضاها، عن طريق وجبات الطعام التي يدَّعينَ أنهنَّ اشتھينها لها، خصوصًا وأنها تعيش بمفردها، فزوجها قد تزوج بامرأة ثانية بعد أن تلبَّسهُ اليأس من أن يمتلئَ رحمها يومًا بزعره، لذا تركها شبه وحيدة في البيت. قالت عريفة وهي ترفع يدها إلى الأعلى مُتباهيةً بها: «بهذه اليد التي سيأكلها الدود تناوَلْتُ سلاح الـ (بي كي سي)^(١) وأفرغْتُ

(١) بي كي سي: بي كي أو رشاش بيكا، هو سلاح رشاش متوسط ضمن مجموعة الأسلحة متعددة الاستخدام يجمع صفات كل من الكلاشنكوف والديكتريوف والغرينوجوف.

مخزناً كاملاً في الهواء، ما إنْ رأيتُ صورة الرئيس صدام حسين تظهر في القمر من دون أنْ ترتجف يدي»، ثُمَّ كَشَفْتُ عَنْ كَتِفِهَا اليسرى، لتظهر آثار ندوب عميقة، سكتت؛ لتضيف تشويقاً للجالسات اللاتي بدا عليهن الفضول، أشعلت سيجارة ثُمَّ قالت وهي توسع عينيها: «هذا وسام شرف أفخر به حتى يوم موتي»، فاستفهمت الجالسات بعيونهن، فنفتت دخان السيجارة إلى الأعلى كتنين، ثُمَّ أشارت إلى منارة الجامع القريب من بيتها، وقالت بَوَرَعٍ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فرددت الجالسات (صدق الله العظيم)، فاسترسلت قائلة بصوت مُنخفض: «مؤذن ذلك المسجد أزعجني جداً بعد رفعه صوت المكبر وتوجيهه نحو منزلي، حذرته مرات عدة وصارحته بقباحة صوته، لكن لم ينفع معه بل ازداد غيًّا، تربصتُ به ذات يوم وهجمتُ عليه بعد خروجه من منزله فجراً وطرحته أرضاً، ثُمَّ تجرأ محاولاً ضربي، فأمسكتُ بخصيته بقوة حتى فقد السيطرة وبدأ يتلوى ويصيح»، فانطلقت الضحكات المشبوهة من الجالسات، «أشبعته ضرباً»، تابعت، «ثُمَّ تذكّرتُ طعنة سكين زوجي الأخيرة بعد رفضي زواجه مؤخراً، استجمعتُ قوّتي وتوكلتُ على الله، وسحبتُ بقوة خيط الجرح الذي خاطه لي (فرج) المضمّد، ثُمَّ تركته وهرعتُ إلى مركز الشرطة، أصرخُ

وأنوح ودمائي تسيل على كتفي وعلى أرضية الزقاق، اتهمت المؤذن بأنه قد طعنني بسكينه. سُجن الملعون ثم تنازلت عن الدعوة مقابل تعويض مالي، تلمست بيدها بفخر أقراطاً ذهبية تتدلى من أذنيها وملامح الانتصار على وجهها، اشترتها بعد الحادثة مباشرة، ثم قالت بثقة وزهو: «أنا عريفة أخت رجال، سيُسَطَّر التاريخ اسمي، أنا التي لا تهاب الموت بل الموت يهابني» فجأة علّا صوت مُنبهات سيارات عسكرية وأجهزة لاسلكية، ثم فوضى ووقع أقدام راكضة في أقصى الزقاق يقترب من الجالسات، لم يحرك ذلك ساكناً لديهنّ فهنّ يستمددن القوة منها وتشحنهنّ بالجرأة، امتلأ الزقاق بالحمايات، ثمّ ترّجل شخص من سيارته المُظلمة، وسار بتؤدّة تجاه عريفة، نزع نظارته الشمسية وألقى عليها السلام فردت ببرود، وأشاحت بوجهها تُكمل حديثها، فاستأذنها بموضوع خاص على انفراد، فأومأت برأسها للجالسات بالمغادرة فتبخرن، فعرفّ نفسه بأنه مرشح للانتخابات في دورتها الثانية، ويودّ مساعدتها في ضمان أصوات منطقته، فعدّدهم لا بأس به باعتبارها مُسيطرة على المنطقة، والجميع يخضع لها درءاً لشرها، استمعت إليه بإنصات وهي تداعب شامة في خدها وتهزُّ برأسها، قالت له: «كم تدفع للصوت الواحد»، فأجابها: «أنتِ من يحدد ذلك»، قالت:

«مئة دولار، والدفع مقدماً»، فاستغرب المرشح قائلاً: «الدفع مقدماً؟!»، قالت بضجر وهي تهتم بالرحيل: «أنا عريفة سمعتي السياسية ونزاهتي فوق كل شيء، اسأل صديقك النائب الفلاني، لولاي لما لامست مؤخرته العفنة كرسي مجلس النواب»، هرش رأسه مقتنعاً بكلامها، ثم ناولها المبلغ كاملاً عن سبعمائة صوت، ثم غادر المرشح وكله ثقة بها.

أيام قلائل تفصل عن موعد الانتخابات البرلمانية، حينما صبحا أهل المنطقة ذات يوم وصور عريفة في كل مكان، على أبواب منازلهم، على سياراتهم، على أعمدة الكهرباء، حتى على قمصان أبنائهم مطبوعة، أبلغ أهل المنطقة أن خطاباً مهماً ستلقيه المرشحة عريفة بعد قليل، وعلى الجميع الحضور كباراً وصغاراً، ومن يتخلف عن ذلك سيكون حسابه عسيراً، وقد أعذر من أنذر. تجمهر الناس ثم صعدت عريفة على درج باب أحد المنازل المرتفعة، تنحنت، ثم قالت بنبرة تهديد بلا مقدمات: «الكلام موجه للجنسين، الانتخابات اقتربت، يشهد الله أني سأقتلع عيون من يصوت لغيري، سأجعله عبرة لمن يريد أن يعتبر، لدي شبكة استخباراتية واسعة زرعتها في أعماق مفاصل مفوضية الانتخابات، يصلني منها حتى ديب النمل»،

ثُمَّ تَبَدَّلَتْ نَبْرَةُ الْوَعِيدِ فَجَاءَ وَانْخَفَضَ صَوْتُهَا وَتَرَقَّرَتْ الدَّمُوعُ فِي عَيْنَيْهَا، دَعَسَتْ بِقَدَمِهَا سِيَّجَارَةً كَانَتْ فِي يَدِهَا، ثُمَّ تَابَعَتْ قَائِلَةً بِجَدِّيَّةٍ: «أَحِبَّابِي، سَعَادَتُكُمْ غَايَتِي، وَالْوَفَاءُ لَكُمْ هَدْيِي»، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَهَا الِیْمَنَى الَّتِي یَخْتْفِي مِنْهَا الإِصْبَعُ الْأَوْسَطُ، وَقَالَتْ: «طَالَمَا سَأَلْتُمُونِي عَنْ سَبَبِ قَطْعِهِ وَلَمْ أُجِبْكُمْ لِسَنَوَاتٍ، حَانَ الْوَقْتُ لَكِي أُخْبِرْكُمْ بِقِصَّةِ هَذَا الإِصْبَعِ؛ لَكِي تَعْلَمُوا مَنْ سَتَتَخْبُونُ».

«بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي بِأَيَّامٍ، طَلَبْتُ مِنْی أُخْتِي الْكُبْرَى (زَكِيَّة) أَنْ أَعِدَّهَا بِأَنْ أَتَوَقَّفَ عَنِ السَّرْقَةِ، وَوَعَدْتُهَا بِذَلِكَ، لَكِنِّي فَعَلْتُ يَوْمَ سَقُوطِ الْعِرَاقِ، فَشَهِيتَنِي انْفَتَحَتْ عَلَى السُّطُورِ، عِنْدَمَا رَأَيْتُ النَّهْبَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، لِذَلِكَ سَطُوتُ عَلَى بَقْرَةٍ مِنْ سَوَاقِ الْمَاشِيَةِ، بِقَرْتِي (سَعَاد) تَعْرِفُونَهَا جَمِيعَكُمْ، وَالَّتِي طَالَمَا بَعْتُكُمْ حَلِيبَهَا وَلَبْنَهَا، نَعَمْ، لَقَدْ نَقَضْتُ وَعْدَ أُخْتِي الْمَرْحُومَةِ، لِذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَطْهِّرَ نَفْسِي وَأُرِيحَ ضَمِيرِي، فَقَطَعْتُ إِصْبَعِي وَرَمَيْتُهُ لِلْكَلاَبِ؛ لَكِي لَا أُكْرِّرُ مَا فَعَلْتُ، سَتَتَخْبُونُنِي لَا مَجَالَ لِلشَّكِّ، لَكِنِّي سَأُعْطِي كُلَّ أَصَوَاتِي لِسَعَادٍ، كَمَا یَفْعَلُ الْیَوْمَ غَالِبِيَّةُ رُؤَسَاءِ الْكُتْلِ السِّیَاسِيَةِ وَالْأَحْزَابِ، وَیَجْلِبُونَ وَجُوهًا لَمْ نَرَهَا وَلَمْ نَسْمَعْ بِهَا مِنْ قَبْلِ، لَقَدْ اتَّخَذْتُ قَرَارِي، سَعَادُ سَتَمَثَّلُكُمْ فِي الدَّوْرَةِ

المقبلة بمجلسِ النواب»، فَصُعِقَ الحضور!، صاح أحدُهم مُحتجًا ومُمتعضًا: «هل ستمثّلنا بقرّة يا عريفة؟» قالت بثقةٍ مُطلقة: نعم، ثُمَّ أَرَدَفَتْ قائلةً بخوف: «إن مثّلتُكم أنا فحينها لن يتبقَّ من جسدي شيء، ربما سأقطعُ حتى أطرافي، بعدَ نفاذ أصابعي الواحد تلو الآخر من كثرة السرقات، ثُمَّ إِنَّ سعاد لن تُسرّقكم، ولن تخونكم، ولن تبيعَ ضميرها، ويكفي أنّها مستقلة!».

أبابل

أقسم غازي على رطل خبز بجانبه موضوع على طاولة الطعام، إنَّه وأقرانه في السلك الاستخباري قد أفلقوا راحة إسرائيل، قال وهو يرفع حاجبه فخراً: «أصبحت (تل أبيب) بفضلنا -والفضل لله- تسير كبلهاء في ليلة ظلماء ففريقنا كالقطن في آذانها، وسدُّ منيعٌ ضدَّ محاولاتها البائسة في التلصص على البلاد وأسرارها العميقة»، مسح شواربه السوداء الكثة بظهر كفه الأيمن الذي يقطر زيتاً، عدَّل سلاحه الذي يُبرزه بقصد من تحت قميصه، ثمَّ نهش قطعة لحمٍ أتبعها ببصلة مشوية، فانتفخ خداه كضفدع ينق، تابع بصوت ممزوج بالمضغ: «قبل ثلاثة أيام وبينما أنا أقود السيارة ببُطء مُلاحقاً بنظري سربَ طيور زاجل يُحلَّق في السَّماء، شعرتُ بحنين لهوايتي السابقة، فترية الطيور مُتعة لا يعرفها إلَّا مَنْ مارسها، وتلك الهواية هي مَنْ جعلتني أهتم بهذا السلك وأتطوع فيه بعد أن كان ضمن نطاق منطقتي فقط، حينها كان قن طيوري برج مراقبة أعرف عبْرَه أعمق أسرار الجيران»، ثمَّ قهقه ضاحكاً،

فسأله بتشويق أحد أصدقائه الأربعة والذين يتحلقون حول الطاولة: «كيف استطعت أن تحصل على هذه الوظيفة الحساسة؟» لم يجيبهم فوراً حتى ابتلع لُقْمَتَهُ وأنهى طعامه، ثُمَّ قال بخشوع: «يا رب أشبعني فأشبع كل جوعان»، اتَّكأ واضعاً قدمًا فوق أخرى بزهوٍ وكبرياء، ثُمَّ تابع قائلاً: «تلك قصة طويلة يا رفاق ستخبركم الأيام بها بدلاً مني»، ثُمَّ همس بصوت منخفض بعد أن مرّت مجموعة شباب بقرّبهم: «فلنغير مكاننا ونذهب إلى آخر، فمكاني الحساس في الدولة لا يسمح لي بأن أمكث في مكان واحد أكثر من نصف ساعة؛ لأن ذلك يجعل مني هدفاً سهلاً ولقمة سائغة، خصوصاً أنني بالذات محطّ اهتمام استخبارات الدول المعادية، لكن هيهات فشحمة أذنهم أقرب إليهم».

رَنَّ هاتفه برقم غير مُسجَّل وهو يدفع فاتورة الطعام، فأجاب على المكالمة وإذ به صوت فتاة مخطئة بالرقم، سألته مَنْ أَنْتَ؟ فأمطرها بوابل من الشتائم، وأقفل الخط، فتعجب أصدقاؤه من تصرُّفه وسألوه مستهجنين عن سبب فعلته، فقال وهو ينفث دخان سيجارته بوجههم: «لاشكَّ أنَّ هذه جاسوسة إسرائيلية تحاول إيقاعي في شباكها وتحدد موقعي، لكنَّ ذلك وهمٌّ، على غازي يا فرعون؟»، شكره رفاقه على الوليمة التي كانت بمناسبة وظيفته الجديدة، ركب سيارته وأشعل الإشارة

الفيدرالية المثبتة في مقدمتها، وانطلق في شوارع المدينة بسرعة جنونية، مجتازًا السيارات ومتجاوزًا إشارات المرور، وسط زعيق منبه سيارته الذي أحال الشارع إلى فوضى عارمة، وكأنه يقوم بمطاردة معتقل فرّ من السجن تواء، ناه رفاقه عن هذا التصرف لكن دون جدوى. وصلوا إلى أحد المقاهي وسط المدينة، ترجلوا من السيارة، فبقي هو فيها يراقب المكان من وراء الزجاج المظلل، استغرب رفاقه بعد أن تأخر بالحقاق بهم فاتصلوا عليه، أجابهم بصوت رخم، إنه يجري مسحًا أمنيًا للمكان، ثم بعد مرور عشر دقائق ترجّل من السيارة واتجه حيث يجلسون، لم يتوقف لسانه عن سرد القصص البطولية التي قام بها خلال الأسبوعين الماضيين، ثم قال بحسرة: «كانت حياتنا ستكون أجمل لو تركتنا إسرائيل بحالنا ولم تتجسس علينا، أرهقنا نحن بوصفنا عناصر أمنية، من إفشال مخططاتها بشكل يومي في الوصول إلى مبتغاها القدر الدنيء».

بعد مرور أربعة أشهر على وظيفته بوصفه عنصرًا أمنيًا، نُقل إلى العاصمة، ثم التحق بالفوج الرئاسي المسؤول عن حماية رئيس الوزراء، ومنذ ذلك اليوم تحوّل غازي إلى طاغية، قبله بشرية، لُغم على هيئة إنسان، يفتعل المشاكل مع الناس؛ ليثبت أنه إنسان مُهم وفي موقع حساس، لم تعد منطقته تتعوز من

الشیطان، بل أصبح لسان حالهم: «نعوذ بالله من غازي الرجم». «اتصل بي شخص من جهاز الموساد الإسرائيلي قبل أيام وترجاني أن أصبح عميلًا لديهم»، قال ذلك في أحد التجمعات العسكرية، فعفط أحد الحاضرين بقوة، فاستشاط غضبًا واتهمه بالجاسوسية لصالح دولة الخنازير - كما يسميها - وكاد أن يفتح النار عليه لولا تدخل الحشد الموجود في الجلسة.

استيقظ في يوم ما عند منتصف الليل أثناء دوامه، بعد أن تنهى إلى سمعه صوت أحد رفاقه يتحدث عبر الهاتف، سار نحوه ببطء كمن يسير على خيط عنكبوت، وبدأ يسترق السمع من وراء الباب، فوجده يتحدث بهمس، حاول جاهدًا أن يصطاد جملة مفيدة من كلامه لكن دون جدوى، فأخذ وضعية الهجوم، ورفس الباب بقوة، وانقض عليه وهو يصيح به: «كشفت أمرك يا عميل إسرائيل»، سلبه هاتفه عنوةً، فوجد على الخط خطيبته التي أسقط في يدها رعبًا بعد أن سمعت الجلبة التي حدثت في الغرفة. بعد هذه الحادثة نُقل إلى البدالة الخاصة برئيس الوزراء بعد أن تسبَّب بمشاكل عديدة، تلقى دورة في أتكيت الحديث والتعامل، مهمته الوحيدة الرد على المكالمات الدولية قبل تحويلها إلى المكتب العام لرئيس الوزراء، راح يتنحى كل لحظة استعدادًا لتلقي الاتصالات، يتخيل أن

الهاتف قد رن فيرفع السماعه ويعدل جلسته، ثُمَّ بصوت أنيق
متزن يقول: «ألو تفضل. ألو».

مرّت ستة أيام على استلامه المَهْمّة ولم يتلقَ أيّ اتصال،
فجأةً قدحت في رأسه المحشوّ بنظرية المؤامرة، أنّ هناك جهازَ
تنصّتٍ قد ثُبِتَ في البدالة من قِبَل الجواسيس؛ لاستراق السمع
على مكالمات الرئيس، وبينما هو يهْمُ بفتح البراغي الخاصة
بغطائها الخارجي، رنَّ الهاتف، فكاد أن يتوقّف قلبه فرحاً،
«أخيراً سأجيب على الهاتف» قال لنفسه، رفع السماعه وبصوتٍ
متّزنٍ قال: نعم، فجاءه صوت فتاة تتحدث العربية بصعوبة،
قالت له مُعرّفةً عن نفسها إنّ اسمها (خافيغا ساسون جلعاوي)
من مكتب الرئيس الإسرائيلي وتحتاج إلى تحويل المكالمة فوراً
إلى رئيس الوزراء، وهو على علم مسبق بذلك!.

أسقط في يد غازي وفار دمه، ما إنّ التقطتْ أذنه ما قالته هذه
الفتاة تواء، صمت قليلاً والفتاة تصيح على الطرف الآخر: «ألو
ألو». أجابها بصوت واهن مليء بالخيبة والحزن قائلاً:
«سأحول مكالمتك إلى مكتب الرئيس فوراً»، عاد بكرسيه إلى
الوراء مذهولاً، ثُمَّ فتح دُرَج مكتبه، أخرج ورقة بيضاء كتب
فيها استقالته، وقدمها لمسؤوله الذي وافق عليها بعد إلحاح
العنصر غازي.

عاد غازي إلى سطح منزلهم، تجوّل فيه بعد أن افتقده كثيرًا، طأطأ رأسه ما إن دخل قُنَّ طيوره الذي اشتاق له ولمن بداخله، طوال فترة غيابه أوكلَ مَهْمَةً إطعامها والاهتمام بها لأمه، استنشق بعمق رائحة المكان، ثُمَّ فَتَحَ لها باب القُنِّ على مصراعيه، فهرعت الطيور مسرعةً إلى الخارج وهي تنفض ريشها وتمطى وتفرد جناحيها استعدادًا للطيران.

حشر غازي إصبعيه في فمه، طوى لسانه إلى الداخل، وأطلق صفيرًا حادًا يصمُّ الآذان، ثُمَّ طرق بكفه بقوةٍ على صفيحة معدنية كمدّاح يقرع على الدف، مُصدرًا ضجيجًا عاليًا جدًّا، فعَرَفَتِ المنطقة أَنَّ اللعنة قد عادت إليهم، وهم الذين نذروا النذور في حال مرَّ شهران متواصلان على عدم سماع صوت صفيره أو رؤيته على سطح المنزل، فزَتْ على إثر الضجيج كومةٌ طيوره التي كانت تُفلي ريشها، بعد أن كانت مُصطفًةً على سور السطح. صوتٌ هديل حمامه يتعوّذُ منه أهلُ المنطقة كما الشيطان ما إن يسمعه؛ لأنَّ ذلك يعني أن نساء المنطقة ستُشَلُّ حركتهن، بعد أن يعتلي غازي قُنَّ طيوره، لَوَحَ لهم بعصا تنتهي بقطعة قماش متقاعدة كانت فيما مضى سروالًا داخليًا له، ثُمَّ زعق بكلمات غير مفهومة تنتهي بالمقطع ياع والمقطع عا في كل مرّة، تفهم الطيور أمره وتنفذه كجنود مطيعة لضابطها،

حلّقت بعيداً جداً حتى أصبحت نقاطاً سوداء في كبد السماء.
قفز غازي من فوق برج طيوره إلى أرض سطحهم، وهو يمضغ
علكة وينفخها ويفجرها، مُتّبِعاً بنظره السّرب الذي يتميز عن
باقي الطيور باللون الأحمر تحت أجنحته، تدفقت شلالات
العرق من تحت إبطيه فتبلّلت فانيّته الرصاصية اللون، وبدأ
يقطُر منها إلى الأرض، فحرارة تموز كانت في ذروتها. بصقَ
العلكة في الهواء فسقطت على أحد المارين في الزقاق، سحب
سيجارته من خلف أذنه ثمّ أشعلها، وهو يتلصّص فضولاً من
فوق على أفراد عائلة جاره الجديد، الذي انتقل منذ أيام إلى
المنطقة ليمارس مُجدداً هوايته الاستخبارية التي ولدت معه
منذ نعومة أظفاره، وبينما هو يختلس النظر ظهرت من باب
المطبخ فتاة غاية في الجمال، بدأت بنشر الغسيل على حبال في
باحة منزلها، قفزت عينا غازي خارج محجرهما، وتسارعت
دقّات قلبه، أخفض رأسه وانطلق مسرعاً كمن يحتمي من
انفجار ما، إلى موقع رصده المموه، والذي كان عبارة عن
صندوق خشبي مُثبّت في زاوية السور، مثقوب بأربعة اتجاهات
يولج فيه رأسه ويراقب المنطقة بزاوية ثلاثمائة وستين درجة،
دون أن يراه أحد، فما إن بدأ يلتهم بعينيه الفتاة بنظراتٍ مليئة
بالحسرة، حتى ارتفع منسوب الأدرينالين في جسده، فالتقط

حصى صغيرة وراح يقذفها نحوها، بُغية لفت انتباهها، لكنّها سرعان ما انتهت من نشر الملابس ودخلت مسرعة بعد نداء أمها.

حجرٌ كبيرٌ سقطَ وسطَ السطح، جعل غازي يترك الرصد، ويبحث عمّن رمى الحجر بغضب وهو يشتم بصوت عالٍ من ألقاه فلم يجده، فلفت انتباهه الحجر الذي كان ملفوفاً بورقة تبدو كرسالة، فتحتها فوجد فيها تحدياً من (مطيرجي)^(١) مجهول الهوية يتوعده فيها بسحق كرامته بقدمه بعد أيام في سباق الزاجل، الذي سيقام بمحافظة البصرة جنوبي العراق، والذي يشارك فيه أعتى وأقدم مربّي الطيور. رنّ هاتفه فأجاب المتصل بضجر، كان على الطرف الآخر ابن عمّه، الذي بدا من صوته مستنجداً به، طالباً منه أن يأتيه فوراً إلى المستشفى، فعّمّه يصارع الموت بعد أن أُصيبَ بطلق طائش أطلقه جيرانهم بمناسبة ختان أحد أبنائهم، فأجابه وهو يتلمّس أطراف شواربه بلسانه، إنه مشغول الآن بطيوره ولا يستطيع، مضيفاً أنه لو هبط عزرائيل الآن من السّماء وقبض روح أمه وهي أعلى ما يملك،

(١) مطيرجي: اسم يطلق باللهجة العراقية على من يمارس هواية تربية الحمام وهي مفردة مركبة من مُطِيرَ بمعنى الذي يُطِيرُ، وجي: إضافة أعجمية تعطي معنى صاحب الحرفة.

وطيوره تحلّق في السّماء فلن ينزل إليها ويلقي عليها نظرة وداعٍ
أخيرة، أغلق الهاتف ثمّ جلس عند زاوية السطح وهو يعيد
قراءة الرسالة المجهولة، راشقًا اللعاب من بين أسنانه الخربة،
تكوّر على نفسه كقنفذ مُحْتَقَن يوشك أن يُطلق سهام الغضب.
مرّت قطعة من أعلى السياج تتمشى كعارضة أزياء، فتناول
المقلاع الذي لا يفارق جيبه، وصوّب حجارة نحوها وأطلقها،
فأخطأها وكسر آخر شباك لدى جاره المواجه لبيتها، والذي
استبدل جميع زجاج نوافذه بالنيلون، ولم يتبقّ منها إلا هذا
الزجاج الأخير، فجاء صوت زوجة جاره وهي تصرخ بأعلى
صوتها: «هل نحن قوم أصحاب الفيل يا غازي؟».

كان غازي عدائيًا جدًّا يقلد أباه وجدته في كل شيء، فوالده
قُتل بشجار أثناء (فرهود الحواسم)^(١)، من أجل الحصول على
قاعدة مرحاض مذهبة من أحد القصور الرئاسية، عَقِبَ سقوط
النظام العراقي السابق، أمّا جدّه فقد كان أحد شقاوات مدينة
الموصل المعروفين، لذا كانت علاقته مع المنطقة متأزّمة،
فالجميع يتجنّب الاحتكاك به درءًا للمشاكل.

(١) فرهود الحواسم: يطلق على أعمال النهب والسرقة التي حدثت في العراق
عقب اجتياح القوات الأمريكية للبلاد عام ٢٠٠٣.

حطَّت طيوره بعد أن تشقّلت في الهواء بحركات بهلوانية، وغازي يتباهى بها كأبٍ يستقبل أطفاله من المدرسة في يومهم الأول، اقترب موعد المسابقة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، فراح يُعدُّ العِدَّة، ويرفع مستوى عنايته بطيره الزاجل المفضَّل (سُهيل) والذي سيخوض به المسابقة، زَيْنَ قدمِ الطائر بحجلٍ من ذهب وانطلق به صباح يوم الأربعاء صوبَ محافظة البصرة، حيث المسابقة التي سيشارك فيها جميع المهووسين بهذه الهواية، تميّزت هذه الدورة عن باقي الأعوام بمبلغ الجائزة الكبير الذي خصّصه أحد أكبر مربّي الطيور الكويتيين دعمًا لهذه الشريحة. انطلقت صافرة المسابقة فقذف غازي طيره الزاجل بقوة إلى السّماء بعد أن قبّله من منقاره، وراح يصيح فيه: «سُهيل أريدك أن تُبيّض وجهي وترفع رأسي»، سجّلت اللجنة المشرفة معلومات المشاركين وأرقام هواتفهم للاتصال بهم وإبلاغهم بنتيجة المنافسة، التي ستعلن نتائجها لاحقًا. عقب عودة غازي إلى المدينة، وصل زاجله بعده بيومين، هرّش باطن كفه الأيمن بعد حكة استمرّت يومًا كاملاً، فقال غازي في قرارة نفسه: «إني أسمع وقع أقدام رزق يهرول نحو جيبي الجائع، اجعله وافراً يا رب»، بعد ساعتين من دعائه، رنَّ جوال غازي برقمٍ دوليّ غريب، أجاب الهاتف فإذا بأحد

أفراد اللجنة يُبلّغه بإحراز زاجله سُهيل المركز الأول وربحه
الجائزة الكبرى للمسابقة، طار عقل غازي فرحًا كطيوره، فهرع
مسرعًا إلى السوق واشترى (أم سبع عيون)^(١) زرقاء وعلقها
على الباب في واجهة منزله درءً للعين والحسد، ثُمَّ توجّه إلى أبي
نجوى ذائع الصيت، واشترى منه قنينة من عرق (العصرية)
ونصف كيلو باقلاء مسلوقة، وصعد إلى سطح منزله ليحتفل
داخل القن بمناسبة فوزه. في طريق عودته واجهه جاره المسيحي
بهنام عند باب المنزل، فقال له ضاحكًا: «هَم مطيرجي وهَم
سكّير، قسمًا يسوع ستدفن المنطقة اليوم بحجارتك يا غازي»
ثُمَّ تابع: «لولاكم يا مسلمين لَمَا ارتفع سعر المشروب إلى هذا
الحد، فأنتم تشربون أكثر منا يا أخي!».

مرَّ وقت على استلامه مبلغ الجائزة، فكَّر في إنفاقه، على شراء
الطيور وبناء برج لها، تحكي فيه الأجيال، لكنّه فجأةً دعك
فكرته ورمائها، ثُمَّ فكَّر في افتتاح حديقة حيوانات تعرض
الطيور فقط، لكنّه تراجع عن الفكرة مرّةً أخرى، وبينما هو
يفكر اقتاده النُّعاس ورمى به في بحر النوم، فتلقفته أفواه
الأحلام، رأى نفسه يجلس في قاعة فيها ثلاثمائة وتسعة

(١) أم سبع عيون: تميمة بابلية مصنوعة من مادة جبسية زرقاء اللون يتجنب
الناس من خلالها الحسد.

وعشرون كرسياً، مَهَمَّتَه رفع يده وخفضها، وكاميرات الإعلام تُلاحقه، وجيوش المتملقين تخِرُّ أمامه ساجدة وتلحس حذاءه، ففزَّ من منامه وتوجه لصديقه (صادق) ليفسر له الحلم، فقال له الأخير وهو ينتف ريش جناح طائر بيده: «إن هذا المكان هو مجلس النواب، عليك الترشح يا غازي، والله إنني أرى فوزك مثلما أرى هذا الطائر الأسمر»، وأشار إلى فتاة تقطع الشارع، ثُمَّ وعده أنه سيُطبل له عند معشر المطيرجية، ووظف نفسه فوراً مديراً لحملة الانتخابية، اشترى غازي جميع أصوات مطيرجية البلد، مقابل زوج من الحمام لكل صوت، يُقسم المطيرجي بشرف أمه وأخواته على انتخابه، ثُمَّ يستلم الحمام ويغادر، علّق صورته في شوارع المدينة وأسواقها، يظهر فيها حاملاً زاجله سهيل، وشعاره الانتخابي «سأجعل مدينتي تحلق فوق الغيوم»، جاب المحافظات شرقاً وغرباً وهو يروّج لنفسه، كان بعض أهالي المناطق التي يزورها يطرّدونه معتقدين أنه عنصرٌ استخباريٌّ، وآخرون ظنوه مُسلحاً ينتمي لإحدى الميليشيات، فلم يكن هنالك مَنْ يصدّق أبداً أنَّ رجلاً بطول شبرين، وممتلئاً مثل كيس دقيق، وتغطي الوشوم يديه السمراوين، يعرف السرّ الحقيقي وراء غزو أمريكا للعراق، وما جرى من حديث بين رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي

وجورج بوش بعد أن رشقه منتظر الزيدي بفردتي حذائه، ويقرأ المستقبل السياسي للبنان وسوريا واليمن. عند الساعة السابعة من صباح يوم الانتخاب، لحظة فتح مراكز الاقتراع، كان غازي يمشي مثل ديك رومي داخلاً المركز الانتخابي، فخوراً لأنه أول مَنْ لَوَّث إصبعه بالحبر البنفسجي، كان موقناً أنه سيكتسح جميع منافسيه بدائرتة الانتخابية، خرج بعد أن صوّت لنفسه وهو يتبادل الغمزات والإشارات مع أهالي الحي الذين يصادفونه عند الباب الخارجي، وهم يدخلون للإدلاء بأصواتهم، ومع انقضاء ساعات النهار، كان غازي يزداد صخباً وضجيجاً، ولحظة انتهاء فترة التصويت، أخرج كراسي ومقاعد بيته كلها مع شاشة التلفاز إلى الشارع، ونشرَ حبلين من المصابيح الملوّنة، ووزّع مكبرات الصوت في الأرجاء؛ استعداداً للاحتفال بالوصول إلى السلطة. بعد ساعتين من الانتظار بُثَّ مؤتمر صحفي للمتحدث باسم المفوضية العليا للانتخابات، أعلن فيه عن النتائج الأولية، فصمّت معشر مربّي الطيور الذين يؤازرونه وهم يدعون له بالفوز، التصقَ غازي بالشاشة محاولاً السيطرة على توتره، بعد ثوانٍ من انتهاء المؤتمر الصحفي، تحوّل زقاقه إلى ما يشبه ساحة حرب، فالإطلاقات النارية ملأت الأفق احتفالاً بفوز غازي بكرسي البرلمان.

بعد عقد أولى جلسات البرلمان التي حضرها غازي، تمت استضافة وزير التجارة للتحقيق في قضية اختفاء أكثر من سبعمائة وخمسين طنًّا من الحنطة، من أحد سايلوات محافظة النجف جنوبي العراق، فيما أكد الوزير المُستضاف أنَّ سبب اختفاء هذه الكمية بين ليلة وضحاها، هي طيور الزاجل البرية التي انقضّت على المحصول والتهمة. عمّ الصخب بعد أن برّر الوزير سبب الحادثة، انتفض غازي من كرسيه، وسار نحو منصّة البرلمان، تنحّج ثمّ طرق على مكبر الصوت قائلاً: «ألو ألو» فهدأ الجميع، تابع: «إني النائب غازي المطيرجي، وصلت إلى هنا بجهود هذا الرفيق»، وأخرج من باطن سترته زاجله سهيل ورفعَه إلى الأعلى، فعَمَّت الجَلْبَةُ في القاعة، ثمّ تابع قوله: «قضيتُ عمري وأنا داخل قبة قنّ الطيور قبل أن أصل إلى قبّتكُم اللعينة هذه، لو كان ما يدعيه هذا الوزير صحيحًا، فمعنى ذلك أن اختفاء سبعمائة وخمسين طنًّا من الحنطة، يحتاج إلى أربعة وعشرين مليونًا ومائة وعشرة آلاف، ومائة وسبعة وأربعين طيرًا، لتأكل هذه الكميّة الهائلة من الحنطة، ومن المستحيل وبحسب خبرتي الطويلة، أن تجتمع هذه الأعداد في مكان ضيّق كالسايلو!»، ثمّ التفت إلى اللجنة الزراعية في البرلمان وهو يضحك ساخرًا، مطالبًا إيّاها أن يتم فتح قنوات تواصل مع

شركة ألبان (أكتيفيا) لتوفير كميات من منتجاتها للحمام الوطني الذي قد يصاب لا قدر الله بعُسر هضم، اشتعل التصفيق والتشجيع للنائب غازي، ما دفعه إلى أن يهاجم وزارة الكهرباء أيضًا التي تزود المواطن بساعتين فقط كل أربع وعشرين ساعة قائلاً: «لم يتبقَّ إلا أن يخرج علينا وزير الكهرباء ويقول، بعد انتهاء طيور الزاجل من وليمتها في وزارة التجارة، حطَّت على أسلاك الكهرباء وقامت بتنظيف مناقيرها بها ما أدى إلى انقطاعها!».

كانت نظرات وزير التجارة، مُحمَّلة بالحقد والغضب والتوعُّد، وهذا ما بدا جليًّا على مُحَيَّاه وعلى تصرفه، بعد أن غادر القاعة مُنزعجًا، وأصوات البرلمانين تطارده بكلمة موحدة «فاسد. فاسد».

اعتدَّ غازي بنفسه، وشعر بمسؤوليته تجاه بلاده وأبناء وطنه، قاطعًا وعدًّا على نفسه، بأن يبقى صوتًا للفقراء والمساكين الذين لا نصير لهم. بعد مرور أسبوع من فتحه النار على وزير التجارة والكهرباء، تلقى تهديدًا بتصفيته إن لم يكفَّ عن تصرفاته الرعناء، خصوصًا بعد أن غرَّد بتهكم من صفحته الرسمية على مواقع التواصل الاجتماعي تغريدة جاء فيها: «يستنكر معشر الحمام العراقي ما جاء من اتهامات باطلة بحقِّه، متمثلة بسطو جماعي على سايلو محافظة النجف،

مؤكدين أنهم براء منه كبراء الذئب من دم يوسف، متوعدين وزير التجارة بدفن وزارته بالذرق!«.

بقي غازي رغم التهديدات الجدية المستمرة بتصفيته، يُحارب الفساد الذي تتسبب بذوره كل يوم في أرض الوزارات والمؤسسات الحكومية، وصلت حد وضع عبوة لاصقة في سيارته، لكنه نجا منها بأعجوبة، وفي صبيحة أحد الأيام وبينما كان يداعب طيره المفضل سهيل على سور سطح منزله، سمع صوت إطلاق قناص جعلته يُخفض رأسه بحركة لا إرادية، التفت بعدها ليرى جثة صديقه الأقرب سهيل تتقلب على الأرض، وريشه مخرج بالدماء، ثم هداً واستكان.

تسبب موت سهيل بصدمة نفسية كبيرة لغازي، الذي أيقن أنه يجابه الفساد بعصا نحيلة فيما تقبض يد المفسدين على سيف بتار، وحال الكثير من الوطنيين التزيهين، قرر غازي أن يُقدّم استقالته ويترك هذا السلك، الذي جعله يفقد أعزّ أصدقائه، لم يعد لديه ما يخسره بعد اليوم بعد رحيل سهيل وأمه العجوز، لذا تواصل مع مهربين ليوصلوه إلى اليونان، ثم من هناك ينطلق إلى أوروبا. حزم أمتعته، هدم قنّ طيوره وهو يبكي حرقاً، رفع صندوق مراقبته ثم اختفى. وبعد أيام عدة نشر صورة له أمام برج إيفل بباريس، فصدّم الجميع وانهالت

علامات التعجب والاستفهام في التعليقات، «كيف وأين ومتى؟ ولماذا ترك غازي الوطن؟» ثُمَّ تعرّف بعد عام من وصوله الى فرنسا على مسؤول نزيه طارده هو أيضًا مافيات الفاسدين، فوظّفه بسفارة العراق هناك كونه مضطهدًا من قِبَل بعض الأحزاب في بلاده، لآرائه السياسية الجريئة التي تخالف نهجهم. بعد أيام شوهد غازي فوق سطح السفارة يبني قنًا للطيور، وبعدها بدأ يستدرجها ويطعمها ويُهجنّها ويروضّها. مرَّ عام وتزايدت أعداد الطيور، فجذبت أحد الصحفيين، الذي تحرّى عن الموضوع وتابعه، ثُمَّ كتب عنه مقالًا مطولًا في صحيفة لوفيغارو الفرنسية، جاء في عنوانه: (أبهى صور الإنسانية تتجلى فوق سطح إحدى السفارات العربية والتي حولته إلى محمية صغيرة للطيور)!!.

مبيد بشري

استنشق أخي آخر العنقود أمس بتلذذ رائحة شواء الكعك
بالجوز، التي قفزت من فوق سور بيتنا وداهمت أنفه، قال
بدلال وهو يمضغ علكة كنعجة تلوك برسيمًا: «أمي لقد
اشتيت الكعك»، فوعدته أنها ستحشو له جوف البراد به،
فابتسم لها ثم تمطى وعاد يُبخلق في شاشة هاتفه التي اعتلتها
لعبة (البوبجي)^(١)، بعد ساعة وأنا أهم بالخروج استوقفني
صوت أمي يناديني، أخرجت من كُم ردائها رزمة نقود مطوية،
لطعت إبهامها، حسبت ما يعادل خمسة عشر دولارًا، ناولتني
المبلغ وهي تؤكد عليّ أن أستنفر حواسي جيدًا لإتمام مهمّة
شراء كيلو من الجوز، إذ عليّ أن أشمه بأنفي جيدًا، وأن ألوك
واحدة منه، لأؤكد من عدم وجود طعم عفن أو رطوبة فيه،
وأن أتحرى جيدًا عن مسقط رأسه وتاريخ ميلاده، ثم دلفت إلى

(١) البوبجي: لعبة إلكترونية مشهورة، محورها الرئيس القتال بين مائة لاعب
يخوضون معارك بينهم تنتهي بفوز لاعب واحد فقط.

المطبخ وعادات مسرعةً وهي تحمل لي كمامةً وفُفَّازات،
«ارتديها لكي لا تصاب بكورونا»، بنبرة أمرة قالت، ثمَّ أعادت
عليّ جُملة من التعليمات آخرها «لا تُقبِّل أحدًا ولا تدع أحدًا
يقبلك». حاولتُ الولوج إلى محل العطار فوجدته مُتخَمًا
بزبونات تخفي الكمامات نصفَ وجوههن، الجميع يطلب
مكونات المعجنات والحلويات، وكأنَّ أجواء الأعياد كانت
حاضرة داخل هذا المحل، صوت كَفِّ الميزان لم يتوقف طوال
فترة انتظاري، كلُّ واحدة منهن كانت تحمل بيدها قائمة
احتياجات صغيرة، إلا تلك الفتاة التي كانت تقف عند زاوية
المحل صامتةً ومُكتفية بالنَّظر فقط، تنظر باستحياءٍ مصطنع
وتبتسم للبائع، وكلَّما سألها العطار عن طلبها، تجيبه بخجل:
«دع طلبي آخر شيء». لم يتبقَّ غيري في الدكان، اشتريتُ الجوز
بعد أن أخضعته لجُملة من الفحوصات، سرتُ بِبطء شديد،
وأنا أسحلُّ أذنيَّ خلفي علَّهما تقتنصان شيئًا، لكنِّي لم أفلح،
قطع الفضول عليَّ طريق الخروج، توسَّلني أن أبقى كمتسول
يقبض على ذراع مارٍ في زحمة سوق، عُدتُ إلى المحل بحُجة أنني
قد نسيْتُ شراء البهارات، فوضعتُ الفتاة أمام الأمر الواقع بعد
أن قلتُ للعطار: «أكمل طلبات زبونتك فلقد مضى على
انتظارها وقتًا طويلًا»، ثمَّ حاولتُ أن أتودد فتابعْتُ قائلاً وأنا

أنسحب إلى الخلف: «السيدات أولاً»، قالت له بنبرة خجل: «أريد مُسَمَّن أرداف، ونافخ خدود، ومنحّف بطن»، ثُمَّ رفعت حاجبيها وقالت بصوت شيطاني: «أريد أن أستغل حظر تجوّل كورونا وأصبح فتاة يُقسَم الجميع بخدودها وأردافها»، بدأ يشرح لها العطار التعليمات الخاصة بالمستحضرات التي جَهَّزها بها وعدد مرات الاستعمال، وبينما هو يشرح، دخل شخص في نهاية عقده الرابع، يرتدي قلنسوة عنايية مكتوباً في أعلاها (أديداس) بالإنكليزية، ألقى السلام بصوت خاشع، عصر سواكه فانهمر منه سيل من اللعاب، ثُمَّ قال وهو يحك قرص السجود على جبينه: «إخوتي هذا الوباء من أعمالنا، اتقوا الله وارجعوا إليه، توبوا إليه توبة نصوحاً، لا تقلدوا الغرب الكفرة»، قالها وهو ينظرُ إلى شعري المربوط إلى الخلف باشمِئزاز، ثُمَّ جال بنظره في المحل، فوقعت عيناه على الفتاة، فقال: «القوارير ثُمَّ القوارير»، وهو يمَسّد لحيته، «هُنَّ زينة الحياة الدنيا ارفقوا بهنَّ»، رشقَ جسدها بعيونٍ جائعة ثُمَّ حوّل ورحل مُنهيّاً جولته الدعوية بجزاكم الله خير الجزاء، استفهمت الفتاة عن طريقة استخدام إحدى العلب الزيتية، فقطع حديثها زبون جديد يسأل العطار عن الزنجبيل والقرنفل لعلاج كورونا، أجابه الأخير بتوفر هذه المواد وهو يضحك

مستهزئًا، فأقسم الرجل له برأس المرحومة جدته إن هذا العلاج مُجَرَّب، ثُمَّ أضاف وهو يَقْضِم ظفر إصبعه الصغير المحنى، إِنَّ علماء من أمريكا وألمانيا وروسيا، قد تواصلوا معه شخصيًا على فيس بوك، للحصول على سِر الخلطة لكنَّه رفض؛ لأن مبلغ المليون دولار الذي دفعوه له كان قليلًا! سأله العطار عن الكمية التي يريد، فقال له: «أعطني بنصف دولار» فَجَاءَ شَقَّ الهدوء صوت إطلاقات نارية بالقرب من المحل، رشقتها دورية للشرطة وهي تُلْزَم أصحاب المحال بإغلاقها فقد ارتخى حزام حظر التجوُّل وعليها أن تربطه مجددًا.

استيقظت صباحًا وكأنَّ جسدي في فرن، رائحة جوارب أخي التي كانت تصبَّح على أنفي كلَّ يوم غائبة! سرب من النمل يسيرُ على لساني، أخفيت ذلك عن أهلي كفتاة حامل وقعت بالخطيئة، تسلَّلْتُ من فراشي وذهبت إلى مختبر، أدخَلْ مؤخرًا تقنية الـ(PCR)^(١) إلى جُملة فحوصاته، دخلْتُ وأنا أضع كامتين على وجهي، فواجهتني طاولة مزدحة بعلب جَمْع الإدرار! فسألت المختبري متعجبًا: «هل فحص كورونا أصبح عن طريق البول؟»، فقهقه ضاحكًا ثُمَّ قال وهو يغمز لي كبنات

(١) PCR: فحص مختبري يتم من خلاله الكشف عن فايروس كوفيد ١٩ والمعروف أيضًا بالاختبار الجزيئي.

الليل: «نحن معتادون على ذلك، فمع كل حظر تجوّل ترتفع نسب الحمل إلى مستويات خرافية، وفهمك كفاية أستاذ».

موجة عطاس اجتاحتني ما إن انتهى من تسليك فتحتي أنفي بمسحة الفحص، دلف رجل سبعينيّ يحمل بيده المرتجفة أنبوب بول إلى المختبر، قال وهو يرّج الأنبوب: «أريد فحص حمل لزوجتي العجوز»، جحظت عيناى وشهقت، فانتبه، قرّب وجهه منى ورائحة الثوم تفوح من أنفاسه قائلاً لي: «هل هنالك شيء؟» قلت له وأنا أضع يدي على فمي: «أشكّ أنى قد أصبت بكورونا»، فاقترب منى أكثر، وقبّلني ثلاث مرّات، ثمّ قال لي بثقة: «علاجك عندي!»، قطبّت جبينى متسائلاً: «كيف؟» فلم يُجبنى، وابتعد عني متظاهراً بسؤاله عن وقت أخذ نتيجة الفحص، ثمّ فجأة صرخ في وجهي صرخة جعلت قطرات البول تهرب منى من شدة الخوف، قال لي بثقة: «خلاص انتهت كورونا من جسدك، ماتت خوفاً!» عدتُ إلى البيت وأنا أركل علبة دواءٍ مرمية في الشارع، وصلتُ إلى المنزل، فاستقرتُ العلبة عند الساقية، دقتُ فيها، فكانت تحمل كتابةً بخط اليد (علاج كورونا) السعر دولاران فقط! حملتُ العلبة وبينما أنا أنفحصها باستغراب، لفت انتباهي جاري جمعة والذي كان يتمشى في الزقاق، واضعاً يديه خلف ظهره، نظر إلى

ساقية المنطقة، فوجد رتلًا من الأرز يتدحرج في مياهها خارجًا من بالوعة إحدى الدور، فانطلق يكفّر بطريقة تصويرية، والمارّون بقربه يمتمون: «استغفر الله العظيم»، صاح بغضب: «حرام يا أولاد الحرام، هذه نعمة الله»، اقتربت منه وأنا أضع الكمامة على وجهي، «كيف حالك يا جمعة؟» قلتُ له فلم يُجِبني واستمر بحشر إصبعه وتدويره في سرته لتنظيفها، والتي تطلُّ برفقة بطنه من فانيته البيضاء بنصف الكم، كرّرتُ السلام فرد عليّ ببرود وهو يسحق بقدمه أعقاب سيجارته وينفث دخانها بوجهي: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، قلتُ له وأنا أحاول أن أبدو متأثرًا ب وفاة والده التسعيني، وسردتُ بصوت يرتجف حزنًا ديباجة المآتم المعتادة.

رنّ هاتفه الذي كشفت شاشته عن صورة والده المتوفى، فأجاب على المتصل بغضب، ثمّ بصق وأقفل الخط بوجهه، تراجعتُ خطوتين كمسافة أمان، وقلتُ مستفهمًا: «من المتصل؟» فقال لي: «إنه موظف من المستشفى الذي توفي فيه والدي»، «وماذا يريد؟» سألت، قال وهو يُشعل سيجارةً أخرى: «اتصل ليخبرني أن التقرير النهائي يؤكد أن والدي توفي نتيجة إصابته بفيروس كورونا، وعليّ أن أحجّر العائلة كوننا ملامسين له»، ثمّ تابع: «أنا أعلم أنه كاذب، فالدولة تدّعي أن جميع

الوفيات سببها كورونا؛ لتأخذ عنهم الأموال من دول الغرب»،
جحظت عيناى وجففتُ العرق من على وجهى وأنا أظاهر
بالاندهاش، قتل أطرافَ شواربه ثُمَّ قال بثقة: «يخسؤون»،
وأقسم برأس أولاده العشرة إنه سَيُلَقِّن الأطباء درسا لن
ينسوه أبداً.

حاولت أن أبـدو ناصحاً له، فقلت له: «يا جمعة، عليك بأخذ
اللقاح أنت وعائلتك، فهو متوفر بجميع المستشفيات»، «هل
أنت مغفل؟» سألنى وهو يقرب وجهه منى، فأومأت برأسى:
لا، قال لى بصوت منخفض وهو يتلفت يمينا ويسارا كمن
يُفشي سرا: «إنها مؤامرة إسرائيلية مكشوفة، الهدف منها جعل
أمة محمد عقيمة، والنتيجة سينقرض المسلمون وتسيطر هي
على العالم، وأنا لست مستعداً لكى أصبح ذكراً عقيماً، فأنا
رجل، وسأزيد من سواد المسلمين ما دمت حيا».

قطع حديثنا صراخ أحد أبنائه العشرة الذى انتهى تَوّاً من
التغوط فى ساقية الزقاق بعد أن سرق أخوه منه كيس الذرة
وهرب، نظر إلّى وهو يشير متباهياً: «أنظر إليهم، هل هناك أروع
من أن ترى أبناءك يكبرون أمامك، فأعداؤنا يريدون حرماننا
من هذه النعمة بلقاحهم التّن هذا»، «السلام عليكم» قال
جارنا أبو معن وانضم إلّنا، ثُمَّ احتضن جمعة متأسفاً على وفاة

والده، مستفهمًا عن سبب وفاته، فأجابه الأول: «إنها جلطة دماغية مفاجئة»، قال جمعة وهو يشير إلى مستهزئًا: «الأستاذ المتعلم الفاهم يريدنا أن نأخذ اللقاح»، فقال أبو معن بندم: «إياك ثمَّ إياك فهذا أنا مثال حيٍّ أمامك»، ثمَّ كشف عن كتفه اليسرى وأخرج مفتاحًا من جيبه وضغط عليه بقوة فالتصق بجِلده، تابع حديثه: «منذ أن تلقيتُ اللقاح وإلى اليوم تلتصق بجسدي المفاتيح والملاعق والشوكات والسكاكين والقذور، أصبحت حياتي جحيمًا منذ ذلك اليوم المشؤوم، وأنا متأكد لو أنني تلقيتُ الجرعة الثانية لالتصقت بكتفي حاجيات أكبر، وتحولتُ إلى مغناطيس بشري». توقفت سيارة بقربنا وترجَّل منها شخصان يبدوان أنهما من أقرباء المتوفى لتقديم واجب العزاء، فأخذهما جمعة وإيانا إلى بيته، جلسنا، ثمَّ ارتفعت أكفُّهم في الهواء، وهم يرددون: «الله بالخير» قرأنا سورة الفاتحة على روح الفقيد، ثمَّ طاف ابنه علينا بدَلَّة القهوة. أقسم أحد أقاربه بعد أن أخبره جمعة أنَّ سبب وفاة المرحوم جلطة وليس كورونا، إنَّ العالم العربي يعيش مؤامرة ليس لها مثل على مرِّ العصور، تفوق مؤامرة رئيس الوزراء العراقي الأسبق نوري المالكي على ثلاث محافظات عراقية حينما سلَّمهم بيد تنظيم داعش عام ٢٠١٤، وأنَّ هذه المؤامرة متمثلة بالحُقنة الصغيرة

المسماة باللقاح؛ لأنَّ المادة التي تُضخ في أجسادنا ما هي إلا تغيير للجينات، وأنَّ نتيجة ذلك ستظهر بعد أعوام، فنُصِّح بلا غيرة وجبناء ومُستضعفين، كما أنها ستؤثر على أجيالنا القادمة، لكنَّ الكثير من الأغبياء ابتلعوا الصنارة، فاحمَرَّ وجه أبي معن، ونكَّسَ رأسه أرضًا بعد أن نظر إليه جمعة بنظرة استهزاء، قال الثاني وبدا ضابطًا متقاعدًا في الجيش العراقي السابق: «مع كل احترامي لرأيك»، موجهًا حديثه للأخير، «إنَّ الموضوع أكبر من ذلك بكثير»، فسألته «كيف؟» وأنا أعدل كمامتي، فقال بصوتٍ رخيم وهو يضع ساقًا فوق أخرى: «إسرائيل» ثُمَّ صَمَتَ، «نعم إسرائيل هي التي اتفقت مع الصين لصناعة هذا الفايروس ونشره في العالم العربي»، فانتفضتُ من مكاني مُستغربًا وقلتُ: «لكن الفايروس انتشر في العالم أجمع، والدليل على ذلك الوفيات بالملايين والتي سُجلت في أمريكا والبرازيل وألمانيا وغيرها من الدول»، فعَفَطَ جمعة بوجهي، وقال: «ألم أقل لك إنَّك مغفل وغشيم؟»، فابتسم المتقاعد ابتسامة رضا، وأكمل: «كل ما تشاهدونه على التلفزيون ما هو إلا كذب وتمثيل، وحتى اللقاح الذي يتلقاه الغرب أمام الشاشات، وأمام العرب المقيمين هناك، ما هو إلا ماء مقطرٌ لخداعكم»، ثُمَّ تابع: «اللقاح ما هو إلا شريحة زرعته إسرائيل في أجساد

المطعمين؛ لتبعضهم ومعرفة جميع معلوماتهم السرية والخاصة»،
ثم أكمل: «في عام ١٩٩١ أطلق صدام حسين تسعة وثلاثين
صاروخ (سكود)^(١) على إسرائيل، لذا بقي خبثهم يقرع جرس
تلك الحادثة كل يوم، فهم حقودون كالجمال لا ينسون ذلك
اليوم أبداً، وبعد مرور أعوام أطلقوا باتجاهنا صاروخاً واحداً
متمثلاً بهذا اللقاح، فحذاري من أن تكونوا ضحايا لخطتهم
الخبیثة، وتحولوا إلى عملاء وجواسيس من حيث لا تعلمون»،
قلت لنفسي متجنباً عطفة أخرى: «لو أرادت إسرائيل الحصول
على معلومات لما انتظرتك!»

بعد مرور قرابة الشهر على وفاة والد الجمعة، عدت من الجامعة
فأخذتني قدماي إلى محلة الجمعة؛ لاستنساخ بعض الملازم من
مكتب قريب من بيته، فصدمت بلافتة نعي سوداء عند بداية
زقاقهم، مكتوب عليها بلون أصفر: «انتقل إلى جوار ربه
الشاب (طارق الجمعة) إثر ضيق تنفس حاد، وسيقام مجلس
الغزاء في داره. إنا لله وإنا إليه راجعون»، خرج الجمعة من بيته
هائماً على وجهه وجلس عند بداية الزقاق، استل خيطاً أسود
من لافتة نعي ابنه المثبتة على الجدار، وراح ينظف بها أسنانه،

(١) سكود: اسم لسلسلة من الصواريخ البالستية التي طُورت من قبل الاتحاد
السوفيتي خلال الحرب الباردة.

ألقى عليّ التحية من بعيد، ثمّ انتفض من مكانه ودخل إلى المسجد ليصلي، تبعته ووقفت جنبه في الصلاة، حاولتُ مواساته على فقدان ابنه، لكنّه تظاهر بأنه غير متأثر برحيل طارق، ثمّ انطلق يدعو على الكافرين والإسرائيليين الذين سلبوه فتاه، ثمّ أقسم إنه سيخلف أربعة بدلاً منه نكاية بالصهاينة!

رنّ هاتف الحاجة بدرية أخت جمعة وجارتنا الأقرب، بأغنية عزيزة جلال «مستنيك يا روحي بشوق كل العشاق»، فهرعتُ إلى الغرفة وهي تدعو أنّ تكون هذه المكالمة بُشرةً خير، نظرتُ إلى الشاشة فوجدتُ اسم ابنها مرزوق، فأجابته ويدها تقبضُ على قلبها، صاحت: «هل البلاء دخل جسد أبيك؟»، أجاها بصوت ممزوج مع ضحكة فرح: «كلّا يا أمي الحمد لله نتيجة فحص الكورونا سالبة، لكن أبي قد أصيب بجلطة دماغية سلّبتهُ النطق، وتسببت له بتبول لا إرادي دائم، وأصبح مشلولاً بالكامل».

انطلقت زغاريد الحاجة بدرية في أرجاء المكان، امتلأ الزقاق بصوتها، اتصلت بحفيدها وطلبت منه أن يشتري لها عشرة كيلوات من الحلوى لكي توزعها على الجيران والأقارب لكون فحص زوجها كان سليماً؛ إيفاءً بنذرهما الذي قطعه على نفسها سابقاً، عاد مرزوق بوالده إلى البيت يدفعه على كرسي متحرك، فاستقبلهم قرع الطبول وعزف المزامير عند بداية

الزقاق، احتشدت المنطقة بكبيرها وصغيرها، نسائها ورجالها، مهنئين أبو مرزوق، الذي ابتسم لهم وسيل من اللُّعاب يجري من زاوية فمه، فقبلوا رأسه فرحاً بعودته سالمًا من اللعين كما يعتقدون، دخل إلى المنزل فأمطرته الحاجةٌ بدرية بالحلوى، ثمَّ اعتصرتهُ بأحضانها وهو يتمايل يمينًا ويسارًا بين يديها كجُثَّة بأنفاس، جثت على ركبتيها ثمَّ سجدت لله شاكراً له فضله ونعمه، «لولاك يا إلهي لأصبحنا سيرة على ألسن الناس»، قالت مخاطبة الله وهي ترفع كفَّيها إلى السماء، ثمَّ خرَّت ساجدة مرَّةً أخرى تحمُّد ربَّها، «على نياتكم ترزقون» قالها مرزوق وهو يمسحُ لعاب أبيه ويعدل جلسته بعد أن مال يمينًا: ثمَّ تابع «هذا الإنسان الطيب صاحب الأخلاق النظيفة، تظنين أن الله سيفضحه نهاية عمره بهذه الفضيحة، على العكس هذه مكافأة منه (سبحانه وتعالى) ودليل على حبه لأبي».

عند المساء وبعد انتهاء العائلة من العشاء، صاح مرزوق على أمه التي كانت في المطبخ منشغلة بتقسيم الحلويات على الصبحون لتوزيعها على الجيران وهي تغني لعبد الحليم حافظ، قائلاً لها بصوت عالٍ وهو يدلُّك بيده ساقَي والده: «يجب أن نذبح عاجلاً يا أمي؛ فقد نجونا بأعجوبة!»، ابتلع ريقه بخوف بعدما رأى مقطع فيديو لمحافظ إحدى المدن وهو يوبَّخ

الأهالي بعد أن سُجلت لديهم أول إصابة بالفايروس في المحافظة لعدم التزامهم بحظر التجوّل.

بعد يومين استيقظ أهالي المنطقة على صوت صراخ وبكاء وعويل مصدره بيتُ أبي مرزوق، تُوفيَّ الأخير بعد يومين على خروجه من المشفى. عند مدخل الحي ثبَّت أهل المتوفى لافتة مطبوعاً عليها نعيٌّ للمرحوم، وفي أقصى زاويتها طبعوا نتيجة فحصه، الذي يؤكد خُلُوه من الفايروس تماماً، خصوصاً بعد أن بدأت الإشاعات في الساعات الأولى للوفاة تظهر هنا وهناك، بأن سبب الوفاة هو «فايروس كورونا» وبعد ثلاثة أيام سُربت لقطة شاشة لمحادثة أحدهم، وصلت لمرزوق على الماسنجر، يُقسم صاحبها إنَّ الميت تُوفيَّ بسبب الفايروس وإنَّ المسرحية التي مُثِّلَت من قبل زوجته وابنه هي درء للعار ليس إلا، اتصل مرزوق بجميع أقاربه في القرية، فجاءوا مدججين بالعصي، نال مروج الشائعة نصيبه، واتسعت رُقعة المشكلة بين العشيرتين، فتدخل طرف ثالث لينزِعَ فتيلها، جمعهم في بيته بعد أن أعدَّ وليمة دسمة ملأت كروش المتخاصمين، ثُمَّ أقسم بالطلاق أن يُقيلوا رؤوس بعضهم أمامه ففعلوا، وانطفأ لهيب الصراع بينهم، ثُمَّ بعد أيام معدودة اتقدت القبيلتان بالإصابات، وأصبح وضعُهما الصحيّ هشاً كورق الصحف، اجتمع المصابون تحت جُنح الظلام

وبسرّية تامّة، قال أحدهم وهو يفرك يديه ووجهه بالمعقم: «كيف سنعالج الفضيحة؟ ستنبذنا بقيّة العشائر، وستبقى سيرة هذه المصيبة تُلاحقنا، حتى بعد نزولنا إلى القبر»، رفع أحدهم قناع الأوكسجين عن وجهه وهو يغلق صنوبر هواء القنينة الصغيرة التي يحملها قائلاً: «لا حلّ أمامنا سوى أن نُسقيهم من كأسنا قبل أن ينتشر الخبر»، وقد صودف ذلك في عيد الأضحى، فوجّه وُجّهاء العشيرتين المصابتين دعوةً غداءٍ لوجّهاء العشائر الأخرى كافةً بحُجّة العيد، نَحروا الذبائح وامتدّت الولائم، وغاصت الكفوف بالمناسف وحُشيت البطون، وحن وقت تنفيذ الخُطة، تسلل أحد المصابين إلى المطبخ، وأخذ يقطع بلسانه حواف أقداح الشاي، ثمّ صَبَّ الشاي وقَدَّمَهُ للضيوف، شَرَبوا جميعهم، فارتسمت ابتسامة النّصر على وجوه المصابين، فالخُطة سارت كما هو مُخطّط لها، وخلال أيام كحدّ أقصى، سيكون الجميع بالهواء سواء، وبالفعل بعد أربعة أيام، انطلقت نداءات الاستغاثة، وانتشر هاشتاك (#المدينة_تختنق) على مواقع التواصل الاجتماعي، مرّت أيام قلائل ثمّ شوهدت حافلات منطلقة نحو مطار بغداد تحمل راياتٍ مكتوبٌ عليها بخطّ تسيل منه الدماء «الصين مطلوبة دم»!!..

منارة الرابعة^(١)

نظر أحدهم إلى الآخر بتحدٍّ كخصوم في حلبة سباق، لحظةً
فُتِحَ بابُ غرفة النائب (سומר النجار)، أطلَّ بقدمه فانطلقوا
أمامه على غير هدى يتسابقون، سار كطاووس وهم يتقافزون
أمامه فاردين أيديهم حوله لحمايته من اللاشيء، «كمن يسوق
الدجاج إلى القن» فالممر خالٍ تمامًا من أيِّ أحد غيرهم، كل
هذا وهو مازال داخل مكتبه، أدخل يده في جيبه وأخرج هواتفه
ومعها علبة سجائره، فامتدت ست أيادٍ تتلقفها كفراخ جائعة
تطعمها أمها، نزع سترته فخطفها أحدهم وضمَّها إلى صدره
كأنَّها حبيبته، توقف النائب عند باب المرحاض، فهجمت
أياديهم تفتح له، دخل فلَحِقَه أحدهم فدفعه بيده غاضبًا، أفاق
الآخر كمن كان يسير نائمًا أو كهائم يحلِّق سموًا مع فارق
التشبيه، كان يطير هؤلاء الثلاثة بنشوة الحب وبدافع النفاق،

(١) منارة: هي إحدى الآلهة المعروفة في الديانة العربية القديمة قبل الإسلام.

كانت تُعبد من قبل قبائل العرب الوثنية في شبه الجزيرة العربية.

أطلق النائب ريحًا بصوت من نوع (الباس)^(١) هَزَّ أرجاء المكان، فقال أحدهم بصوت عالٍ لِيُسمع النائب وهو يفتح منخريه على آخرهما ويستنشق بقوة: «ما أطيبها كأنها عطر (لاكوست)^(٢)» فأثار الحنق في نفوس الواقفين، كونه أكثر ولاءً لفخامته حتى هذه اللحظة، ثُمَّ قطع حديثهم صوت شخ النائب وهو يبول واقفًا، فأسرع الآخر أمرًا إياهم بالإصغاء ثُمَّ قال: «كأنها معزوفة شط البجع» شعرَ الأخير بالغبن، فهو الوحيد الذي لم تسعفه غريزته (اللوغية)^(٣) بإثبات ولائه لسيادته، كانوا بمنظرهم وهم واقفون عند باب الحمام، كالذي يقفُ مُتَظَرًّا زوجته تلد طفله الأول عند باب صالة الولادة، وضعَ أحدهم أذنه على الباب فاستمع إلى صوت السَحَاب وهو يُغلق، فأوماً مبتهجًا للبقية بالاستعداد، تهنّدوا وانتصبوا ففُتِح الباب وخرج النائب سالمًا لا غانمًا، ويدها تقطران ماءً، فهرع الثلاثة راكضين ناحية الغرفة لالتقاط علبة المناديل الورقية، وصلوا سويًا، فتوسَّل أصغرهم أن يتركوها له لأنه لم يبادر بشيء إلى الآن، فأخذها وراح وجثا على ركبته كمن يقدم خاتمًا

(١) الباس: هو نوع من أنواع الغناء الرجولي يحتل المدى الصوتي الأدنى بين كل الطبقات الصوتية الأخرى.

(٢) لاكوست: أحد أشهر أنواع العطور.

(٣) اللوغية: مفردة عراقية وتعني أقصى درجات النفاق.

لمعشوقته، طأطأ رأسه ورفع علبة المناديل أمامه، عاد النائب إلى غرفته، ووقع أحذيتهم وهم يركضون قبله يشق الصمت في المكتب، بعد أن جلس واتكأ على كرسيه، أوماً بيده فجلسوا وهم يضمون سيقانهم أدباً.

«ماذا نأكل اليوم؟» قال لهم، فأجاب أقدمهم بتودد: «أي شيء لا يضر بقولون سيادتك حتى إن كان خبزاً يابساً، يا تاج رأسي ورأس عائلتي وعشيرتي».

نادى النائب سومر على أحدهم، فأجابه اثنان منهم، ثم قالوا له: «حدّد سيادتك، كلانا أبو سومر»، فابتسم لهم النائب برضا، ثم نظر بحنق إلى الثالث، الذي لم يرزق ذكراً لغاية الآن فكل ذريته بنات، صكّ الأخير على أسنانه بقوة وأصيب بمغص من شدة الغضب، ما دفعه إلى الاستئذان والخروج من الغرفة وهو يمشي إلى الورا، اتصل بزوجته وأفرغ كلّ غيظه عليها، ثم هدّد وتوعّدها بزواج الثانية، إن لم تُنجب له فحلاً وأقفل الخط في وجهها، وراح يمارس هوايته إذ يفلي ويداعب خوارزمية مواقع التواصل الاجتماعي، وينشر صوراً له مع النائب على صفحة تحمل اسم (محبّي النائب سومر النجار)، كانت في السابق صفحة للكوميديا المحلية البالية. ظهر له إعلان مُموّل لمركز مختص بالتلقيح الصناعي وتحديد جنس

الجنين أيضًا، كان وضعه المادي لا يسمح له بتنفيذ هذه الخُطة، فراتبُه الذي يتقاضاه من وليِّ نعمته لا يتجاوز ثلاثمائة دولار، على الرُّغم من كل ما يصبغه ويبطنه ويظهره من لعق؛ لذا اضطر أن يبيع سيارته، وذهب ليلقَح زوجته اصطناعيًا، هذه المرّة مع إمكانية اختيار جنس الجنين، مرّت تسعة أشهر وخرج الجنين (سومر المُنتظر) إلى الحياة.

اقتربت الانتخابات وبدأ الذباب البشري يطوف ويحوم فوق وحول النائب المرشح الذي يأمل تجديد دورته بثانية، فاجتمع بالثلاثة وأمرهم بالبحث عن شخص رابع، وهو يُشدّد مع إظهار عينيه من تحت نظارته المُظلمة، على أن يكون بكفاءتهم ليساعدهم على التثقيف والترويج له، محذرًا من إغفال عنصر الولاء وهو الذي يعني (متزلفًا، منافقًا، منزوع الكرامة، عالي الدناءة تجتمع في وجهه كلّ الوجوه، وأبرز صفاته الذلة والندالة).

نشروا إعلانًا في مجموعة إلكترونية خاصة بحمايات أعضاء مجلس النواب، أرفقوا معه صورة افتراضية لرجل بطقمٍ أسودٍ رسمي، يحشر في أذنه سماعة سوداء، وبشارب تنافس كثافته مكنسة، وذيلوها بعبارة فرصة عمل ذهبية بمكتب النائب سومر النجار (حفظه الله ورعاه وسدد خطاه). وقع الاختيار على

شابٌ كان عريسًا جديدًا لم يتجاوز الخامسة والعشرين بعد، لكنَّ عمره النفاقي يفوق ذلك بمراتٍ بحسب مصادر مُطلعة، ما جعله يكون الشخص الرابع في الفريق، وما هي إلا ساعات حتى غيّر صورته الشخصية على مواقع التواصل، إلى صورة النائب مع تسلسله الانتخابي، ثُمَّ طَبَعَ على قميصه صورة المرشّح وقد خط تحتها (لأجلك أبيع أمي وأبوي).

دخل الشابُّ الجديد ليتعرف عليه الأستاذ النائب، فنظر إليه آباء سومر بحقد وهم يطالعون ثيابه، قال له النائب وهو يدفع بقايا اللحم من بين أسنانه بخشبة نحيلة: «أريدك أن تنضمَّ إلى إخوتك»، وأشار إلى الثلاثة، تلوى الشاب في مقعده كمن يقاوم زنقة ثُمَّ صاح: «ها خوتي ها»، فأجابوا: ها، «سومر اسمك هزَّ أمريكا، سومر اسمك هزَّ أمريكا، هي هي هي هي»، ثُمَّ رَنَّ هانفُهُ فجأةً، أجاب وفعلَّ مكبر الصوت، جاء صوت والدته تسأل عن أحواله وهل هو مرتاح في عمله الجديد، ثُمَّ قالت له، متظاهرةً بأنها لا تعلم أن النائب يسمعها: «يَمَّه رأيت الأستاذ في الحلم، كان يطوف حول الكعبة المشرفة، وخلفه ستة رجال بشوارب طويلة يريدون الوصول إليه ولا يستطيعون، ووجهه من شدة النور كأنه (بلاجكتور) في ليلة ظلماء»، استغرب النائب من الحلم، فانتفض أحد الثلاثة من مكانه مُفسِّراً الحلم، قائلاً: «حَجِّي

عرفت هؤلاء الستة، إنَّهم نوابُ الكتلة الفلانية والذين بإذن الله سيفشلون في محاولاتهم إسقاطك في الانتخابات».

بعد ليلة الصَّمت الانتخابي التي تجرعوها سُماً بزغ اليوم الموعود، توزعوا على المراكز الانتخابية ضمن رُقعتهم الجغرافية، يسألون هذا وتلك عن أصواتهم ولمن أعطوها، ويدونون ذلك على أوراقهم. حلَّ المساء وأغلقت الصناديق، وتمَّ جرد الأصوات وخسر النائب خسارة مدويّة تماثل بدويها انفجار مرفأ بيروت، حصل على ستة أصوات فقط، وتحقق حلم أم مرافقه الجديد، نشر صورة له على فيس بوك واضعاً يده على خده، فجاءه تعليق واحد فقط، أمّا التفاعلات والتعليقات التي كان أصحابها يتزاحمون على المنشور فاستحالوا دُخاناً، وانطلقوا يُمجّدون نواباً ومسؤولين جُددًا فازوا في الانتخابات، أمّا التعليق الذي كتبه أحدهم فقد كان:

«إذا ضَرَط المسؤول في مجلس قيل له: رحمك الله
وإذا عطس المواطن في مجلس قيل له: قَبَّحك الله».

لم يتقبَّل النائب الخاسر ما حلَّ به مِن كارثة، فبريد صفحته الشخصية بشمته رسائل الشماتة، ذاتهم أولئك الذين كانوا بالأمس أنصاراً ومحبين لسيادته، قلبه الذي كان قد استبدل صمَّامه مؤخراً على نفقة الدولة لم يتحمل ما جرى، فأصيب

بسكته قلبية مُفاجئة أنهت مسيرة سومر النجار، انتشرت صورةُ
نعيه كالنار في الهشيم، وانهالت عليها التعليقات بين رَحَمَاتٍ
ومسَبَّاتٍ لكنَّ كَفَّةَ الأخيرة هي الأرجح، صرخت أُمُّه الحاجَّة
جواهر بحرقة بعد أن تلَقَّتْ خبر وفاته وهي تبكي وتضم سترته
السوداء إلى صدرها ثُمَّ ترفعها إلى أنفها وتشمُّها بقوة وتقول:
«كسرت ظهر الوطن تيتم الشعب برحيلك، لم تعد البلاد
صالحة للسكن!» أخرجتْ هاتفه ورفعته بيدها التي تتمايل
كأفعى، وأنارت الشاشة التي كشفت عن خلفيته، وكانت
الآية الكريمة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ قالت وعويلها يرتفع: «إحسانك
فاض على الفقراء والأرامل والمساكين وأصبحوا بعدك يتامى»
أيدها جميعُ الحاضرين وهم ينظرون بحزن مصطنع إلى صورته
التي يقطع زاويتها العليا شريط أسود، والتي كانت مثبتة وسط
الحائط يرتدي فيها جلباباً أبيض وتدلّ من يده سبحة خضراء
رافعاً يديه إلى السَّماء داعياً، ازدرد سائقه الشخصي ريقه ما إنْ
سمع حديث والدته، كان يعلم أنَّ هذه المسرحية التي يؤديها
الحضور، هي محض تمثيل، وأنَّ صفقات الفساد التي كانت
تتمُّ داخل سيَّارته المظلَّلة لا يعلمها سواه، فقد كان يعتبره بئراً
أسرارهِ وخِزانةَ ملفَّاته، قال أحد مرافقيه (أبو سومر ٣) وهو
يرفع حزامه يميناً ويساراً إلى سرِّته، مقاوماً هزَّات كرشه بصوت

يجهش بالبكاء أمام الجالسين وهو يطوف حول نعش الفقيد الملفوف بالعلم: «رجعنا تَوًّا من المقبرة وأتممنا الحفر»، مسحَ بظهر يده على جبينه، الذي كان يتصبب عرقاً، ثُمَّ تقدَّم بخطوات ثقيلة وألقى بجسده فوق النعش وصاح بعد أن استنشق التابوت: «الله أكبر لا إله إلا الله رائحتك يا تاج رأسي تفوح مسكاً»، فتزاحمت أنوف المنافقين لتشم الرائحة التي ادعاهما، فكَّبر الجميع وناحت النساء ولطمت الخدود وعمَّ العويل المكان، ذاتهن النساء اللاتي كنَّ يرقصن ويحتفلن في لياليه الحمراء، أضاف (أبو سومر ٢) وهو يتجشأ لينثر رائحة الكحول في أرجاء المكان: «طين قبره الشريف هش كالقطن».

سومر رجل عازب، صاحب تاريخ حافل بالنضال، فقد نشأ في بيت مفكك أُسرِيًّا، كان يعمل في التهريب إبان النظام السابق، وألقي القبض عليه ووُضع في السجن، ثُمَّ أُطلق سراحه بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، ثُمَّ أُلقي القبض عليه مرّة أخرى بتهمة التزوير، ومؤخراً أفرج عنه بعد أن قضى عشر سنوات تقريباً في الحبس، أرشيف ماضيه المشبوه يحتفظ به جارهم الأقرب شوقي، حيث كان سومر يطرق بابهم كلّ يوم عند الفجر، ظناً منه أنه باب منزلهم، فهو يملأ جوفه بالمشروبات الكحولية بشكل يومي، ظنَّ شوقي لوهلة عند

لقائهما الأول أنه مريض فأشفق عليه كثيرًا، لكنّه علِمَ بعدها، أنه زبون دائم (لأبي جمال)^(١)، وللصيدليات المتواطئة التي تزوّده بالمهدئات الممنوعة، فكان يَسْبُحُ في عالم ثانٍ خمسًا وعشرين ساعة في اليوم!

لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، رفع المشيعون سومر، وانطلقوا لدفنه وسطَ صرّخات أخواته اللائي مزّقن ثيابهنّ. بدأ الشيخ بالدعاء له، وقبل أن ينتهي من الدعاء جاء صوت (أبو سومر) مختنقًا بالبكاء: «أبرئوه الذمة»، ثمّ أتبع قائلاً: «والله كان يصوم يومي الاثنين والخميس وكان المرحوم يُحبُّ الناس وفعلَ الخيرات، وإنه أحسَّ بموته أمس حينما اصطحبني معه؛ ليشمّ الهواء النقيّ عند أحد أصدقائه، قال حينها إن حياتنا أيام معدودة والذكيّ من يستغلّها، وأوصى رحمه الله، أن يُدفن بجانب والده جبّار، وأن تُزرع شجرة آس فوق قبره».

السيناريو المتكرر لرؤية الميت في المنام يحضر دائمًا في مثل هذه الوقائع، فبعدما يُتوفّى شخص ما بيومين أو ثلاثة، يجب أن يراه أحد أفراد العائلة، وهو يرتدي الأبيض، وحوله أشجار وورود وهو يُلَوِّحُ بيده ويتسم فرحًا قائلاً لهم: «إنه مُرتاح جدًّا، وإنه تبوّأ مقعد صدق عند ملكٍ مقتدر»، فيتحوّل

(١) أبو جمال: هو أحد أشهر بائعي المشروبات الكحولية في المدينة.

كل من في البيت إلى ابن سيرين، ويفسّرون الحلم بالجنة الموعودة للمتقين، ويعمُّ الفرح في اليوم الثاني، ويبدؤون بتقسيم الصدقات التي عادةً ما تكون إناء لبن مرصّعًا بالتمر.

انتهى مجلس العزاء، فاصطحب جاره شوقي زوجته؛ لتقديم واجب العزاء لجيرانه، جلسوا وتبادلوا أطراف الحديث عن مصاعب الحياة والسياسة، وسردتُ والدته المرحوم سومر مآثر ابنها وصولاته وجولاته دفاعًا عن الحقّ وعن حقوق الشعب، وكيف أنّه لم يساوم على مبدئه طيلة حياته السياسية، من أجل حفنة نقود لا تُسمن ولا تُغني من جوع، وفجأةً فُتح باب إحدى الغرف وخرجت إحدى أخواته منفوشة الشعر وعيناها متورمتان وهي تبكي فرحًا قائلة: «رأيت سومر، رأيت الغالي» انتفضت الحاجة جواهر من مكانها بعد أن جلست أخته تقصُّ رؤياها قائلة: «رأيتُهُ برداء أبيض حوله أزهار الشقيق الأحمر، وأشجار نخيل يتدلى منها رُطبًا جنيًا، وسماء زرقاء وأنهار من لبنٍ وخمرٍ، وطيور النورس البيضاء تُحلّق فوق رأسه، لَوَّحَ بيده وابتسم، ثُمَّ أشار إلى رجلٍ ظهر من خلف شلال، يرتدي جلبابًا لونه أخضر وفي وسطه مكتوب حرف (T)^(١) باللغة الإنكليزية»،

(١) حرف الـ (T) يرمز لكلمة TUBORG أحد أشهر أنواع المشروبات الكحولية.

فكَبَّرَ الجميع وترقرقت أعينُهم بالدموع، فقالت أختها الكبرى جازمةً: «سومر في الجنة، وهو مُرتاح الآن في قبره، الذي لا أشكُّ مُطلقاً أنه روضة من رياض الجنة، لكن ما لم أفهمه من الحُلم هو وجود هذا الشخص صاحب الجلباب الأخضر!»، فأجابها شوقي بثقة وعتاب: «ألا تعرفينه؟» فهزَّت رأسها نافيةً، فقال لها: «إنه أبو جمال، أحد الأولياء الصالحين».

روح قوادة

بجسدها المُكْتَنَز تدافعت مع أجسادهنَّ بَقْوَةً، ووصلتْ بِشَقِّ
الأنفُس إلى مرقد النَّبِيِّ شَيْت وَسْطَ مَدِينَةِ المَوْصِل، أخرجت
من حَقِيْبَتِهَا الَّتِي تَفْوَح مِنْهَا رَائِحَةُ البُخُور، شَرِيْطًا قِمَاشِيًّا
أخْضَر، وَبَدَأَتْ تَعْقِدُهُ عَلَى شُبَّاكِ الضَّرِيح، وَهِيَ تَصَلُّ عَلَى
أَسْنَانِهَا بِغَضَبٍ، عَقَدَتِهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، بَعْدَ بَنَاتِهَا اللَّاتِي رُزِقَتْ
بِهِنَّ، تَذَكَّرَتْ وَهِيَ تَعَادِرُ الْمَقَامَ تَهْدِيدَ حِمَاتِهَا لَهَا، الَّتِي قَالَتْ لَهَا
بِالْأَمْسِ وَهِيَ تَلْتَقِطُ طَقَمَ أَسْنَانِهَا مِنْ قَدَحِ الْمَاءِ: «أَمَامَكَ فَرَصَةٌ
أَخِيرَةٌ يَا ابْنَةَ مَحْرُوسٍ، لَكِي تَنْجِبِي لَنَا صَبِيًّا يَحْمِلُ اسْمَ أَبِيهِ،
وَإِلَّا وَاللَّهِ سَأَرْوِّجُهُ بِامْرَأَةٍ ثَانِيَةٍ، وَالْعُرُوسُ جَاهِزَةٌ، وَأُمُّهَا تَنْتَظِرُ
مَنِي إِشَارَةَ فَقَطْ»، ارْتَجَفَتْ نَازِكٌ بَعْدَ أَنْ تَخَيَّلَتْ ضَرَرَتَهَا قَدْ
مَلَأَتْ الْبَيْتَ صَبِيَانًا، فَعَادَتْ مُسْرِعَةً إِلَى الْمَرْقَدِ وَجَلَسَتْ أَمَامَهُ،
قَارَبَتْ كَفِيْهَا رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَانْطَلَقَتْ بِالدَّعَاءِ عَلَى
حِمَاتِهَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ رَجَّتْ رَبَّهَا أَنْ يَحْقُقَ أَمْنِيَّتَهَا وَأَنْ تَصْبَحَ
أُمًّا لَوْلَدٍ تَسْتَنْدُ عَلَيْهِ هِيَ وَوَالِدُهُ عِنْدَ الْمَشِيْبِ.

مرّت عليها شهور الحمل ثقيلة وكأنها مربوطة بأثقال من الحديد،
لم تكن حينها عيون التقنية تتلصص على ما يختبئ في الأرحام.

دوت صرخة جميل أخيراً، زغردت القابلة ثم صاحت بفرح:
«أريد البشارة، جاء وليُّ العهد، ستستمرُّ سلالة آل عزت»، ثمَّ
ناولتِ الطفل لجدته التي حملته على راحتها، وراحت تدور به
في أرجاء البيت، تحوّل خدُّ نازك إلى بستان ورد أحمر بعد أن
قبّلها زوجها وهو يُمسّد على شعرها، انقلبت حياتها منذ ذلك
اليوم، ابتلعت العجوز لسانها، لم تعد تُسمعها نشيد الصباح
الذي حفظته على مدى سنوات. مرَّ أربعون يوماً على ولادة
جميل، عند المغيب وبعد أن حمّته أمُّه، سقطت قرّاصة سرّته
من تلقاء نفسها، أخذتها نازك لتدفنها في المكان الذي سיתי
إليه عندما يكبر بحسب المعتقدات الشائعة، نادى عمّه الشاب
سليم وترجّته أن يأخذ سرّة ابن أخيه التي وضعتها له داخل
كيس، ويدفنها في حديقة أحد الجوامع؛ لكي يصبح تقياً ورعاً
عندما يكبر، وتباهى به أمام الناس، زفر سليم ممتعضاً لكن
إلحاحها وترجيها له، غيراً موقفه المستهزئ بخرافاتها.

بار وملهى (حسنة ملص)^(١) يُرْحَب بكم، دخل سليم مثل

(١) حسنة ملص: تعتبر من أشهر بائعات الهوى في العراق والتي حققت الكثير
من الشهرة في زمانها.

كلّ يوم إلى الملهى، غرق في الأجواء، ثمل وانتعش وانتشى،
فحديقة البار كانت في ذلك اليوم مُمتلئةً حدّ التخمّة بالحاضرين،
لذا غاب الجميع عن وعيهم على أغاني الفرقة الجديدة التي
تقودها مطربة شابة جاءت من بغداد خصيصاً إلى هذا البار
لِتُقيم حفلتها، صخب ورقص وصياح وضحك، فجأةً تذكّر
سليم وصيَّة زوجته أخيه، فنهض من مكانه بخطى متثاقلة
يترنح يميناً وشمالاً، دسَّ يده في جيبه أخرج النقود، ناولها
للمحاسب، فسقطت سرَّة جميل في حديقة الملهى من دون أن
يدري، دعستها الأقدام الراقصة ودُفنت في حديقة البار، وصل
إلى جامع الحي الذي كان سيدفن فيه الأمانة، فتشَّ عنها فلم
يجدها، عاد إلى المنزل ونسي الأمر برمته، عند الصباح سألته
نازك عنها فأجابها: «إنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام».

صاحت نازك وابنتها جميل بصوتين مختلطين، والأخير
يمسك بسنّه ويرفعه نحو الشمس: «يا شمس خُذي سن
الحمار وأعطيني سن الذهب»، ثمَّ ألقاه بعيداً، وعاد ليداعب
خصيتيه كالعادة، ضربته أمه على يده، ناهرةً إياه عن هذه الفعلة،
سألها ببراءة وهو يتلمَّس أذنه اليسرى: «لماذا لدي قرط واحد
يا أمي؟ هل تحبين أخواتي أكثر مني؟» تبسمت نازك وضمَّته
بقوة إلى صدرها وهمست في أذنه: «ستعلم ذلك عندما تكبر».

بعد سنوات قليلة هدمت البلدية بقرار حكومي ملهى حسنة
ملص، وشيّدت على أرضه محالً تجارية ومسجد صغير،
وُهب كوقف على روح صاحب الأرض.

بقميصه الحريري وبنطاله الكاوبوي وتسريحته المميزة
وحذائه الروغان، يقف جميل كلَّ يوم عند باب مدرسة البنات،
يقضم بأسنانه إظفر إصبعه الصغير المزين بخاتم فيروزي كبير،
يرجُ كومة المفاتيح المعلقة في حزامه بينما ينتظر خروج
الفتيات؛ ليتحرّش بهنَّ ويلاحقهنَّ ثمَّ يمضي ثلاث ليالٍ في
السجن، وهكذا دواليك، يذهب في ليالي الشتاء تحت جسر
المدينة العتيق رفقة أصحابه، يوقدون النار ويحتسون الخمر
على آهات أم كلثوم، وهي تغني: «هل رأى الحب سكارى؟»
لكن جميل يتسلل مبتعدًا عنهم، يسمع القرآن من مُسجّله
الخاص ويُكمل شرب جعته! يركض الحظ نحوه لاهثًا أينما
ذهب، فحظ العاهرات ورثه من مدفن سرّته الأول، قال لأمه
ذات يوم بعد أن تبدّل حاله وهو يحشر السواك في فمه، إنه
سيغادر إلى العاصمة بغداد ليدرس الشريعة الإسلامية، فهو
يحلم أن يعتلي منبرًا ويصبح خطيبًا يعظ الناس ويرشدهم إلى
طريق الصواب، ومضى إلى حيث المقصد.

بعد عام ٢٠٠٣ بلغ جميل من الشهرة مبلغاً، لم تعد النار التي على العلم شيئاً أمامه، تتنافس شاشات الفضائيات ليحلّ ضيفاً عليها، وتعاهده على السمع والطاعة الحاشيات، فقد أصبح جميل رئيس حزب إسلاميٍّ شهير، فاز في الانتخابات وشارك في حكم البلاد والعباد، يصلّي في النهار ويقىم الليل في البار! اقتربتِ الدورة الانتخابية الثانية، وبدأ السُّعار الانتخابي، غرق مركب حزبه وخرج صِفَرُ اليدين، نام ليلتها بأحضان الخيبة.

حلمٌ غريبٌ تسلَّل إلى منامه تمثِّلُ بسَيِّدةٍ خمسينيةٍ تحمل كيساً صغيراً بيدها، ترقص تارة وتغني أخرى، اقتربت منه وناولته ما بيدها، ثُمَّ توارت خلف جمع من الراقصات، فتح الكيس فوجد قرّاصة بيضاء صغيرة، زَمَّ شفّتيه وقطَّبَ جبينه مستغرباً، فَرَّ من نومه فوجدها بيده، انتفض من مكانه وألقى بها من نافذة الغرفة، فسقطت داخل عربة هَمَرٍ أمريكيةٍ ضَمِنَ رتلٍ صادفَ مروره بتلك اللَّحظة!.

سودافيد بلص^(١)

اهترأ عُمر أبي شيماء وهو يعمل موظفًا في معمل الغزل والنسيج براتب بالكاد يسد رمقه وعائلته، كان يحولُ أمنيّاته رفقةً ماكنّته التي كان يُسمّيها (حنان) أو زوجته الثانية كما يُطلق عليها رفاقه في العمل، يحرصُ على تزيّتها وتنظيفها والاعتناء بها وهي التي كانت تأكل ثلثي نهاره طيلة الأعوام الأربعين الماضية، يسرّها دومًا بآلام الزمن المزمّنة ومصاعب الحياة الشّاقة التي تلکمُ عزيمته وتُدّمي صبره الذي يحرص على تضميده وتعقيمه، حرصًا منه على ألا يُصاب بداء اليأس، يستيقظ كلّ يوم والخيبة ذاتها على وجهه، يقفُ قبالة مرآته العجوز، والتي شاخَت هي الأُخرى من كثرة شكواه أمامها كلّ يوم، لم يكنْ هناك غير هذين الجمادين ينصتان له بعد وفاة

(١) سودافيد بلص: هو مركب دوائي يستخدم للتخفيف المؤقت للأعراض التي تسببها نزلات البرد أو الحساسية أو أمراض التنفس الأخرى وهو ممنوع تداوله حاليًا.

زوجته التي ابتلعها نهر دجلة في حادثة (العبرة)^(١) بمحافظة
نينوى عام ٢٠١٩ رفقة مائتين آخرين، تاركة له ابنتهم شيماء
التي نجت من الموت، حينها كانت ذاهبة رفقة أمها للاحتفال
بعيد الأم، فُجع أبو شيماء وسكن الظلام بيتَ الصفيح الذي
يعيش فيه مع ابنته، أمّله الوحيد في الحياة أن يحصل على قطعة
الأرض التي منحتها له الدولة ويبنى عليها بيتًا، يطمئن فيه على
ابنته الوحيدة بعد أن ترافق روحه عزرائيل في يوم ما، تلك الأرض
التي مضى ستان عليها، ولم يستطع إلى الآن الحصول على سندها،
لكنَّ الأمل بتحقيق حلمه ما يزال يُلوِّحُ له بيده من بعيد.

تأبَّط أبو شيماء ملفَّ معاملته الأصفر، وانطلق بعد أن صلَّى
ركعتين لله بنية التيسير والتوفيق عند شبابيك الدوائر الحكومية،
التي ما إن يدخلها المواطن حتى يضيع في متاهة روتينها
القاتل، نظر إلى ملفِّه بحُزن وأسى، فربَّما اقتربت ساعة الفراق،
وسيكون اليوم آخر يوم له معه، بعد رفقة دامت سنة وسبعة
أشهر، أصبح جزءً من جسده النحيل، تحوَّل الملف إلى ما
يشبه غطاء مائدة طعام، قطرات زيت هنا، ومرق أحمر هناك،
فسندويشات الفلافل وغيرها من الأطعمة، تركت بصمتها عليه

(١) حادثة العبرة: هي حادثة وقعت عام ٢٠١٩ في مدينة الموصل إثر انقلاب
عبرة في نهر دجلة، راح ضحيتها أكثر من ٢٠٠ شخص.

أيضًا، ترجَّل عن درَّاجته الهوائية واتجه إلى دائرة التسجيل العقاري، وصل قبل أن تفتح الدائرة أبوابها بساعة، اشترى من الكشك القريب منها ساندويشات بيَّض مسلوق وجلس على حافة بابها الموصد يتناول فطوره، وكاميرا المراقبة تتلصَّص عليه، خرج موظف الأمن الجديد ليستفسر عن سبب وجوده في هذا الوقت، وقبل أن يجيبه جاءه صوت رفيقه الأقدم منه: «دعه فهذا أبو شيماء من أقدم مراجعي دائرتنا»، ثمَّ أغلقا الباب وتركاه يكمل الطعام غير مبالٍ، أكمل وجبته ثمَّ راح يتمشى أمام باب الدائرة، الذي فُتح منذ نصف ساعة، لكنَّ لم يُسجل حضور أيِّ موظَّف لغاية الآن! تصفَّح أبو شيماء من وراء نظارته السَّميكة جدًّا، أحشاء ملفِّه الذي حفظه عن ظهر قلب، راح يهندس أوراقه ويعدِّلها كرسام يتباهى بلوحةٍ أنجزها، ثمَّ أخرج من جيبه هاتفه، بعد أن استوقف أحد المراجعين طالبًا منه أن يأخذ له آخر صورة مع الملف وهو يُقبله، وسط استغراب الأخير.

توافد الموظفون عند الساعة التاسعة والربع، فاندفع أبو شيماء إلى الشُّباك وقبض على الحديد بقوةٍ بكلتا يديه، والملفَّ تحت إبطه، فتح الموظف الشُّباك مرحِّبًا بأبي شيماء، ورائحة الشاي تفوح من الغرفة، «هل جلبت صحة الصدور؟» سأله وهو يتصفَّح ملفِّه، فأجابه: «نعم، وقد وضعته داخله وبالتسلسل

أربعة وخمسون»، «ولماذا لا تنظم فهرسًا له؟» سأله الموظف وهو يقهقه ضاحكًا، فأجابه وهو يخفي صلعة رأسه بخصلة شعر جانبية: «لقد نظمت له واحدًا بإمكانك الاطلاع عليه في نهايته»، غمس الموظف إصبعه بإسفنجة مبللة، وراح يدقق الملف ورقة ورقة حتى انتهى منه، زمّ شفتيه ورفع حاجبيه بتعجب: «ملفك اكتمل يا أبا شيماء، والله يعزّ علينا فراقك» اشتغل التصفيق والتصفير خلف أبي شيماء من قبل المراجعين الذين يحتشدون خلفه، قبلوه واحتضنوه يباركون له، وهو يمسح بباطن كفه اللعاب الذي تركته أفواههم على خده، طار أبو شيماء فرحًا وحلق خياله بعيدًا، فرأى نفسه وابنته يسكنان بيتًا جديدًا، بعد أن بنى قطعة الأرض النائية، التي خصصتها له البلدية بعد مُضيّ عشرين عامًا على تقديمه عليها، قطع الموظف عليه تخيلاتِه بعدما ناداه وهو يشير إليه أن يأتيه من الشُّباك الخلفي، لحقته نظراتُ المراجعين الذين همسوا لبعضهم البعض، «إنَّ هناك خازوقًا ينتظر هذا المسكين، فليس من المعقول أن يتسلَّم قطعة الأرض هكذا بسهولة بعد عام ونصف فقط»، ثمَّ ضرب أحد الواقفين مثالًا قائلاً: «عندما تحلُّ مسألة رياضية بسهولة فاعلم أنَّك تحلُّ خطأ» قال الموظف لأبي شيماء وهو يشير إلى أمِّ عزيزة أقدم موظفات

الدائرة: «لحيتك بيدها الآن»، فجاء صوتها الحاد وهي تُعدّل حجابها، «خير البر عاجله، وأوضاع البلاد تسوء يوماً بعد آخر، والأمر متروك لك عزيزي أبا شيماء»، استأذنها الموظف الوسيط، بعد أن نشب عراك بالأيدي بين المراجعين في الطابور الذي اجتازه شخص يدّعي انتسابه لفصيل مسلح، استفهم المسكين منها فقالت له وهي تقلّب معاملته: «هذا المسكين -وأشارت إلى ملفّه- يتألم وهو يعاني من عجز في القلب، فهل تريد أن أعطيه مخدرًا عامًّا أو أعطيه منوّمًا أو علاج (سودافيد بلص)؟» همّ بسؤالها فقاطعتها: «الزبون على حق دائماً، سأشرح لك التفاصيل»، تلفّت يمينًا ويسارًا، ثمّ قرّبت وجهها منه قائلة: «أمّا المُخدّر العام فهو مجانيٌّ، ولكن عندها سينام ملفك قرابة عام آخر، وربما يضيع أيضًا في هذه الفوضى، تلك مقادير الله»، ثمّ أشارت إلى تلّ يضم آلاف الملفات، «وأمّا المنوّم فهو بألف دولار فقط، وسينام أيضًا وسيغفو فقط ليرتاح عند ذلك الرّف» وأشارت إلى رفّ آخر يتكدّس فوقه المئات منه، تابعت: «لكنّه في نهاية المطاف سيستيقظ حتمًا لكن متى؟ لا أعلم»، ثم همست في أذن أبي شيماء: «وأمّا السودافيد بلص فصحيح أنه غالٍ، لكنّه يُريح من الآلام، ولا يسبّب النعاس، وهذه من أهم ميزاته؛ لذا فإن ملفك سيكون طفلي المدلل،

وسأعامله معاملة ابنتي عزيزة، لكن السودافيد بلص باهظ
الثمن يا أبا شيماء، وتذكّر دائماً أنك ستستلم قطعة أرض تكون
لك بيتاً في المستقبل، يُخلّصك من جشع المؤجر وثنم
الإيجار»، «كم سعر الخيار الأخير؟» سألها أبو شيماء بتوجُّسٍ
وخوف، فأجابته وهي تضغط بإبهامها على زر مسبحتها
الإلكترونية: «خمسة آلاف دولار فقط بعد الخصم طبعاً، فراحة
الزبون غايتي، والله شاهد على ما أقول»، رُفِعَ أذان الظهر
فاستأذنته للصلاة، تاركَةً إياه يُفكّر في الخيارات الثلاثة، أنهت
صلاتها وجلست على السجادة تدعو ربها، مسحت وجهها
بكفيها، ثُمَّ عادتُ إلى أبي شيماء، سألتُه وهي تتأفّف: «هل
اخترت؟» فقال لها: «أعطني مُهَلَّةً إلى الغد؛ لكي أفكر»،
ناولته ملفه، «أنتظر ك غداً» قالت، ثُمَّ أَقفلت الشباك في وجهه.
نظر إلى هاتفه بخبث مبتسماً بعد أن ضغط على زر حفظ الفيديو
الذي صوّرها فيه خلصة وهي تساومه، عاد إلى البيت ونشر
المقطع على صفحته الشخصية تحت عنوان «شاهد قبل
الحذف موظفة في دائرة التسجيل العقاري تطلبُ رشوة من
مواطن مقابل تمشية معاملته». بعد أقلّ من عشر دقائق، انتشر
المقطع في الصفحات كافة، وصار الحديثُ عن الفساد في هذه
الدائرة حديث الشارع المتعطش للفضائح.

طرق القاضي بمطرقته بعد أن علّا الضجيج داخل قاعة المحكمة، التي عُقدت جلستها المعروفة (بقضية سودايد بلص)، اقتادت شرطيتان المتهمة أم عزيزة، وهي مكبلة بالقيود، بدت وهي تدخل غير مبالية بما يجري حولها، نودي على أبي شيماء، الذي دخل كقائدٍ منتصرٍ أمام جمهوره المؤلف من ضحايا روتين وفساد وابتزاز بعض الدوائر الحكومية، مثل ياسين، الذي فقد والده بعد أن قتلته جلطة دماغية في أحد أيام آب، حينما كان يقف في طابور يمتد لعشرات الأمتار، منتظرًا دوره لست ساعات تحت أشعة الشمس الحارقة، آملًا أن تتزين معاملته بتوقيع مدير الدائرة العام، بعدما عجز جيبه عن دفع رشوة للحصول على توقيعه، زغردت أم حوراء ما إن دخل أبو شيماء وهي تتحسّس بعصاها الكرسي الذي ستجلس عليه، فهي الأخرى ضحيةً لمعاملة أودت ببصرها بعد أن عرقلتها دائرة أخرى لأشهر، ففقدت فرصتها في السفر إلى إيران لإجراء عملية لشبكيتها التي كانت واهنة؛ بسبب حادث وقع لها. قالت وهي تُعدّل نظارتها السوداء: «أخيرًا سيؤخذ حقنا من هذه الزمرة الخبيثة»، نظر القاضي عاقدًا حاجبيه إلى الخصوم، وهو يُقلّب صفحات القضية التي أمامه، ويستمع إلى أقوالهم.

أُفرج عن أم عزيزة بعد أن ادعت أنّها كانت تصف دواءً لزميل لها في القسم، يعاني من انزلاق حاد في الفقرات، وبعد ورود عشرات المكالمات من جهات عليا أُغلقت قضيتها تمامًا، وأودع أبو شيماء في السجن بتهمة التشهير بموظف أثناء أداء الواجب، حاول جاهدًا أن يُقنع القاضي بصدق إفادته، لكن باءت محاولاته بالفشل بعد أن بتَّ القاضي بالحكم، قائلاً له: «إن ما ورد في التسجيل الفيديوي، ليس إثباتاً قاطعاً على أن مفردة سودايفيد بلص هي إشارة إلى الرشوة»؛ معقباً بالقول: «إن القانون لا يحمي المغفلين» صرخ أبو شيماء وهم يجرونه إلى سيارة الشرطة: «بل القانون لا يحمي المواطنين!» مرّت أم عزيزة بقربه وهي تتظاهر بإجراء مكالمة مع طبييها قائلةً له: «شكراً دكتور لقد كان مفعول السودايفيد بلص رهيباً» وأطلقت ضحكة شيطانية جعلت أبا شيماء يعصّ على لسانه وينتف شعره.

دخل عليه الشرطي بعد يوم واحد من حبسه في السّجن الانفرادي، فوجده قد حوّل الحائط إلى ما يشبه الجريدة، مزدحم بعبارات مكتوبة بالجص: «سودايفيد بلص، صحة صدور، صورة قيد، مستمسكات ثبوتية، بطاقة وطنية، تصديق، صك بالمبلغ، صادرة، واردة، عدم استفادة، تأييد خطي، تعهّد قانوني».

ناولهُ السَّجَّانُ ماعونَ الطعامِ وهو يناديه، نظرَ إليه أبو شيماء
بحدةٍ وغضبٍ كالمختلين عقليًّا، ثُمَّ بدأ يضرب رأسه بالجدار
بِبُطءٍ ثُمَّ تصاعدتِ الوتيرة، وهو يصرخ: «رأسي سيتحطم،
دماغي سينفجر»، ثُمَّ سقط على الأرض يتقلَّب كثيرٌ سيذبح،
هرع الشرطيُّ إلى عيادة الطيب القريبة من السجن، عاد برفقة
طبيب وصف له علاجًا على الفور، سأل الشرطي الطبيب عن
اسم الدواء فأجابه الأخير: «سودافيد بلص، واحرص على أن
يكون الأصلي»!.

راوتر^(١)

ألقي أبو قادسية بأذنيه وسطهم؛ ليصطاد من حديثهم ما يُطفيء به ظمأ فضوله النهم، ثبَّت نظره يسارًا حيثُ يجلسون، مترانٍ فقط يفصلانه عن الطاولة التي يتحلَّق حولها خمسة من جيرانه المتخاصم معهم، يجلس كل يوم في مقهى الحي الشعبي وحده دون رفيق، يغرف بصيوانيه الكبيرين المؤطَّرين بالشعر الأبيض، آخر أخبار المنطقة وعلومها، يحفظها ويخزنها في ذاكرته المحصَّنة ضدَّ النسيان، يستقبلها كطبقيٍّ لا قِطَّ ثمَّ يبدأ بيثها في الأرجاء، تسير الأخبار عن طريقه أسرع من الكهرباء داخل الأسلاك، قال أحد الجالسين بحُزن وأسى وهو يهمس لرفاقه: «لقد انفصل أبو حفيظ عن زوجته وطلَّقها بالثلاثة يوم أمس، وطردها في الشارع»، جحظت عينا أبو قادسية مصدومًا، شفت من قدح عصير الرمان الذي أمامه، وعاد يسترق السَّمع

(١) الراوتر: هو جهاز يستخدم في شبكات الحاسوب لتوجيه رزم البيانات فيما بينها تقوم الموجهات بالتحكم بحركة البيانات في شبكة الإنترنت.

باستمتاع مصدرًا بلسانه أصواتًا من بين أسنانه، يفعل ذلك عادة عندما ينتشي بخبرٍ ما، فركت قريحته المتعطّشة ساقها كذبابة فرحة، ما إن بدأ فوج الأخبار بالتدفق نحوه، حصل تَوًّا على سبقٍ صحفيٍّ، خبر شهِّي طازج ما زالت الأبخرة تتصاعد منه، انتبه إليه أحدُ الجالسين، فتظاهر بأنّه يُقور أنفه بإصبعه، وأنّه غيرُ مُبالٍ بوجودهم، ثُمَّ حَكَّ رأسه من فوق (عرقينه)^(١) الأبيض، وانتفض من مكانه مغادرًا المقهى، فأمامه مهمّة طويلة وعليه أن ينجزها، يجب أن يُعلِّم الصغير قبل الكبير أن أم حفيظ انفصلت نهائيًا عن زوجها، وعليه أن يضيف لمساته، ويرشّ توابله الخاصّة وفق مقادير يراها أكثر تأثيرًا على المتلقّي ما إن يسمع الخبر، عاد إلى بيته مسرعًا طرق الباب وقبل أن تفتح له زوجته أخبرها من ورائه بالحدث، فصره لم يسعفه على تحمُّل الأمر، اندفع مسرعًا إلى غرفته استلقى على ظهره واضعًا ساقًا فوق أخرى، تناول خشبة تنظيف الأسنان وحشرها بين أسنانه، ثُمَّ اعتدل وفتح صفحته الوهمية على فيس بوك، غرفة عملياته الإلكترونية والتي تحمل اسم «صمتي شموخي»، إذ سبق وأن أضاف أهالي منطقته جميعهم إليها، كتب على جدارها

(١) العرقين: من أغطية الرأس، وهو يشبه القبة الغربية إلا أنه يخلو من الحواف العريضة، وأغلب ألوانه الأبيض وهو الأكثر انتشارًا.

بعد أن انتقى خلفية حمراء مؤثثة بالقلوب: «طالق طالق طالق»، ثمَّ أتبعها بكلمة التفاصيل في أوَّل تعليق، فسرِد القصة مضيِّفاً عليها: «إنَّ أبا حفيظ قد كسر يد زوجته، وحالياً ترُقِد في قسم الكُسور في مستشفى المدينة» انهالت الاستفهامات والاستفسارات، لكنَّه سرعان ما أغلق الصفحة وخرج ليبدأ عمله الميداني. لا يشعر باللذة إلا أن يُشرك لسانه بالمهمة، لسانه الذي يشبه تماماً مدرج الطائرة، تقلع الأخبار منه إلى أرجاء المنطقة كافة، اختار وجهته وذهب إلى (نشمي) صاحب محل الخضراوات والفواكه بحُجة شراء نصف كيلو من الموز، قال له مبتسماً وهو يلقي مسبحته في الهواء ثمَّ يلتقطها: «هل سمعت آخر الأخبار؟» زمَّ نشمي شفّتيه قائلاً: «خير أبو قادسية؟» سحبته الأخير مِن يده وجلسا على الكرسي، أخرج مِن جيبه بخّاخة الربو، حشرها في فمه وضغط عليها مُستنشقاً رذاذها، ثمَّ أعادها، وبدأ بسرد القصة حتى انتهى منها، ثمَّ طار كنحلة تبحث عن شذى مِن محل إلى آخر ناشراً الخبر في كل مكان، عاد إلى المنزل بعد أن أفرغ كلَّ شيء في جُعبته، استلقى على سريره متعباً، أدار بكرة مذياعه القيثارة، وبدأ يستمع إلى نشرة الأخبار. انتبه إلى هاتفه يرنُّ وعلى شاشته رقم غريب، أجاب، فجاءه صوت رجل على الطرف الآخر، مستفهماً بصوت رخيم حازم: «أبو قادسية؟»

فأجابه: نعم، قال له الرجل: «أنا مدير مكتب النائب فلان الفلاني، والأستاذ يود مقابلتك بعد ساعة من الآن» أسرع إلى الحمام، صبغ شارييه بلون أسود قاتم، شدّبه مُشكلاً منه رقم ثمانية، حلق لحيته، تحمّم، تعطرّ، ثم ارتدى طقم عُرسه الأبيض البالي، والذي بدا فيه كفزاعة في حقل حنطة، ذهب إلى الموعد، جلس بزهو أمام النائب بعد أن مدحه الأخير، مبدياً إعجابه بمسيرته الحافلة بالمشاكل، ومُثنيّاً على قدرته الفريدة في نقل الكلام، واصفاً إياه بمحطة (البي بي سي) العالمية. استعرض أبو قادسية بفخر وهو يقضم بأسنانه تفاحة، أرشيف المصائب التي تسبب بها، كانت آخرها أزمة بين قبيلتين انتهت بفصل عشائري قصمَ ظهرَ أحدهما، بعد أن بث خبراً عن علاقة ابنهم مع ابنة القبيلة الأخرى، صادفهم يوماً ما عند باب الجامعة يمسكون بأيدي بعضهما، سحب النائب من الدرج رزمة نقود، ووضعها أمام أبي قادسية قائلاً له: «لقد أوكلتُ لك مهمّةً سرّيةً وخطيرةً لكنك أهل لها»، ناوله قصاصة ورقية مكتوبةً عليها التفاصيل، عدّل أبو قادسية ربطة عنقه، ثم قال له: «أتريدها طبلاً أم رقاً أم إيقاعاً؟» ثم تابع: «ولكل سعره الخاص»، رفع النائب حاجبيه مُتعبجاً، ثم قال له وهو يحشر سيجارة في فمه: «وضّح لي أبا قادسية ماذا تقصد بهذه

الخيارات الثلاثة»، أخرج الأخير من جيب سترته ورقة وقلماً، رسم ثلاث دوائر متداخلة، كبيرة ومتوسطة وصغيرة، على الكبيرة كتب طبل، والمتوسطة رق، والصغيرة إيقاع، ثُمَّ حَدَدَ مَدَيَات وصولها إلى الجمهور والتَّكْلُفَة، فاختار النائب الطبل، وزاده رزمتين فوق الأولى، دَسَّ أبو قادسية المال في جيبه وانطلق نحو العمل. اتكأ على سريره واضعاً يديه خلف رأسه يفكر في المرحلة الجديدة من العمل، فَرَّ من على سريره بعد أن لمعت في رأسه فكرة، شرع في تأسيس غرفة عمليات خاصة به، يُطْلَق من خلالها عنان غريزة أنفه في ملاحقة روائح الفضائح، طوى السجادة التي كانت مُعلَّقة على جدار الغرفة، وهو يردّد في سرّه: «أستغفرُ الله العظيم، سامحني يا ربي»، ثُمَّ قَبَّلَ الكعبة المنقوشة عليها ودسّها في جوف الخزانة، مُستبدلاً إيّاها بخريطة تضمُّ صُور السياسيين، تناول قلماً أحمر وخيطاً أخضر، ثُمَّ بدأ يهندسُ خُطَّتَه، كُمُحِقِّق مُنْهَمَك في فكِّ رموز جريمة غامضة، وضع دائرة حمراء حول هدفه الأول، ثُمَّ قرر أبو قادسية أن يُجَنِّد ابنته وزوجته في العمل، قرر استغلال تخصص قادسية في الحاسوب وإدارة تطبيقات التواصل الاجتماعي، تراجع خطوتين إلى الوراء وراح يتأمَّل مشواره الجديد بروح تملّوها الحماسة والاندفاع.

تفاجأ المسؤول المستهدف برسالة حطّت في بريده الإلكتروني،
يبتزّه فيها أبو قادسية مُهدداً إيّاهُ بكشف الستار عن تجارة
الأعضاء البشرية التي يمتهنها، شعر المسؤول بقلق شديد،
خصوصاً أنّ الصفحة التي راسله منها أبو قادسية وصل عدد
متابعيها إلى نصف مليون متابع، عرض عليه أن يلتقي به
للتفاوض، أرسل إليه دعوة وتذكرة سفر إلى تركيا حيث يسكن
الآخر، هبطت الطائرة في مطار (إيسنبوغا) الدولي بأنقرة، عدّل
أبو قادسية ربطة عنقه وهو يهبط على سلالها مُستنشقاً بقوة
هواء تركيا ومُمتشياً بنصره القادم.

«ما سعرك يا أبا قادسية؟» سأله المسؤول وهو يدخّن
سيجاره الكوبي داخل مكتبه الفخم جدّاً، فأخرج له ورقة كبيرة
وراح يرسم عليها دوائره الثلاث، وكتب فوق كل واحدة آلتها
الموسيقية الخاصة بها، مُحذراً إيّاه من أيّ تصرف أحمق قد
يفكر فيه زبانيته، والذين كانوا ينظرون إليه، نظرة أسد يريد أن
ينقض على فريسته، عندها هو من سيدفع ثمن تصرفهم
الأرعن، وسينشر جيشه الإلكتروني الذي ينتظر مُثأباً الفضيحة
بكاملها، مُرفقةً بإثباتات حصل عليها من مصادره الخاصة
جدّاً، فما كان من المسؤول إلا أن دفع نحوه مُغلّفاً محشواً
بالمال، علِم أبو قادسية بعد أن تلمّسه بيده وتفحصه بعينه، أنّه

يفوق مبلغ المسؤول الأول. ثُمَّ عاد إلى الأخير مُطالبًا إيَّاه بمبلغ يفوق ما أعطاه إيَّاه في المرّة الأولى، وإلا سيصبح ماردًا يأتمر بأمر خصمه اللدود، ويتحول إلى عدوّ له، لم تمضِ سوى ثلاثة أيام، حتى أَلقت النزاهة القبض على المسؤول الأول، بعد أن رفض الانصياع لابتزازه، وابتلعه (سجن الحوت)^(١) إلى يومنا هذا.

اقتحم أبو قادسية مُعترك السياسة، وأصبح سلاحًا فتاكًا بيد المتخاصمين والمتناحرين، ارتفعت أجور آلاته الموسيقية أضعافًا، وجنى ثروة طائلة، ثُمَّ في يوم ما قرَّر الترحل عن صهوته، بعد أن اقتحم الميدان دخلاء أساءوا إلى المهنة. مرَّ على اعتزاله قُرابة الشَّهر، بعد عمل استمر خمس سنوات، صاح على أم قادسية في يوم الجمعة أمرًا إيَّاهَا: «جهزي نفسك، يجب أن نصل الرحم، سنزور أقرباءنا جميعًا، فأخبارهم انقطعت عنا منذ مدة طويلة» أراد أن يستذكر أيامه الخوالي، أن يصطاد بصنارة فضوله القليل من أخبارهم يلوكها ويحرك بها لسانه، بعد أن أُصيب بخمول نتيجة تقاعده.

(١) سجن الحوت: هو سجن أمني مشدد الحراسة يقع قرب مدينة الناصرية في محافظة ذي قار في العراق، وهو أكبر سجن في جنوب البلاد.

عند المساء انتهت زيارته العائلية، وعاد إلى البيت مبشوراً من الأخبار ومن الطعام، امتلاً سنامه بالقصص وسيجترُّ الأحاديث منه لأيام، أجلس قدح العصير على كرشه، وراح يقطف الشعر المتجاوز على وجنتيه بملقط، وهو سارح بما جناه اليوم من غَلَّة. «إذن رجاء ابنة عمي شكري استأصلت الرحم، وندى ابنة خالي ذنون حامل، وخلود جارة بيت أهلي لُقِّحت صناعياً في الأردن، وعاصم ابن خالتي ساطعة جاءه ميراث دسم من أهل زوجته»، تمنى أنَّه يملك بوقاً يوصل صوته إلى أرجاء العالم؛ ليثَّ هذه الأخبار، وبينما هو غارق في التفكير سرقه نوم عميق. استيقظ فجأةً على أصوات أنفاسه الضيِّقة، كان مثلَّ ضبيٍّ مذعور، كغريق يتشبَّث بالأنفاس، نسي شُبَّاكَ غُرْفته مفتوحاً، ومَلَأَت عاصفة ترابية جوَّ غُرْفته بالكامل، تلمَّس جيوب سترته بسرعة، باحثاً عن بخاخ الربو خاصته، عَضَّ عليه بشفتيه وضغط فوجده فارغاً، صرخ بصوت عالٍ على زوجته، ثُمَّ سقط مَغشياً عليه، استفاق فوجد نفسه كمولد كهْرُبَاء تنفرع منه الأسلاك، بعضها يتلصص على نبضات قلبه، وأُخرى على معدَّل أنفاسه، صاح على أُم قادسية، فلم يخرج صوته، كَرَّر النداء فلم يسمعه أحد في الردهة، فزوجته كانت منشغلة تهيئ له الطعام، ضرب على السرير مُصدراً صوت

ضجيج عالٍ، فالتفتت نحوه واغرورت عيناها بالدموع، لقد فقد أبو قادسية صوته إلى الأبد، موجة الربو الحادة قطعت أوصال حباله الصوتية وأحاله إلى أبكم، خرج من المشفى والتزم المنزل لأيام، تحوّل فمه إلى حُجرة مهملة، داهمه الاكتئاب، واستولت على وجهه الحبوب بعد تردّي حالته النفسية، نُحِل جسده وخارت قواه، أقفل باب غرفته ذات يوم واختلى بحاسوبه الشخصي، في اليوم الثاني وجدته أم قادسية قد غادر رفقة الموت. بعد مرور اثني عشر يوماً على رحيله، فُوجئ الجميع بمنشور على صفحته التي ازدحمت أكثر بالمتابعين ووثقها فيس بوك بشارته الزرقاء، جاء في المنشور الذي أرفق بصورة تعود لمنظمة (ويكيليكس)^(١): «من اليوم وصاعداً، سننشر صفحتي بالنيابة عن روحي الطاهرة كلّ ما أعرفه عنكم، لقد تعلّمتُ جدولة المنشورات من رجل طيب ساومته ذات مرّة بعد أن اكتشفتُ أنه يعاني من مشكلة تخصّ رجولته، لقد جندت التكنولوجيا لخدمتي حتى بعد مماتي». أُسقط في يدي أهل الحي والأقرباء، استيقظ أهل المنطقة في اليوم التالي وقد ثبتت أم قادسية رقعة على جدار بيتها مكتوباً عليها: «صالون

(١) ويكيليكس: هي منظمة دولية غير ربحية تنشر تقارير وسائل الإعلام الخاصة والسرية من مصادر صحفية وتسريبات إخبارية مجهولة.

بيت الأسرار للسيدات، قصّ الشعر، صبغ، سيشوار، مناكير، تجهيز العرائس، تنظيف الوجه، إزالة الشعر بالليزر، إزالة الهموم، وخدمات أخرى».

بعد أيام عدة ظهرت تحت صفحة أبي قادسية كلمة مُموّل، وبعدها أصبح لأم قادسية قناة تلفزيونية، بعد أن نفّذت وصية زوجها الذي طلب منها فتح قناة تلفزيونية، تبثُّ القرآن الكريم على مدى أربع وعشرين ساعة، لينال من الأجر والثواب الكثير. اجتزأت أم قادسية الوصية، وراحت تبثُّ على شاشة الفضائية، فضائح وصفقات لمسؤولين كبار في الدولة وراحت تبتزُّهم الواحد تلو الآخر، رشّحت نفسها للدورة الانتخابية بعدما أصبحت رقمًا صعبًا في الساحة السياسية، ففازت وحصلت على مقعد نيابي، ثمَّ أصبحت بعدها رئيس لجنة العلاقات الخارجية، وكاتمة أسرار البلاد.

مضاد للموت

أَلَقْتُ السَّمَاءَ عِبَادَةَ اللَّيْلِ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَتَقَّ الْقَمَرُ سَوَادَ الْمَسَاءِ وَأَطْلَ بِرَأْسِهِ مُحَدِّقًا عَلَى أَحْيَائِهَا الْخَرَسَاءِ، فَرَشَ جَلِيلَ سَرِيرِهِ عَلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ هَرَبًا مِنْ جِيوشِ الْبَعْوَضِ الَّتِي بَدَأَتْ أَوَّلَى مَنَاوِرَاتِهَا مَا إِنْ انْقَطَعَتِ الْكَهْرِبَاءُ الْوَطْنِيَّةُ، وَأَعْلَنَ صَاحِبُ الْمَوْلُودَةِ أَنَّ مَوْلَدَتَهُ لَنْ تَعْمَلَ بَعْدَ الْآنَ؛ بَعْدَ نَفَادِ الْكَازِ أَوَّلَى، اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ مَجْتَرًا ذِكْرِيَّاتِهِ، قَبْلَ أَنْ تَصِيبَ جَلْطَةُ تَنْظِيمِ دَاعِشِ دِمَاغَ الْمَحَافِظَةِ وَتَسْلُهَا بِالْكَامِلِ، تَذَكَّرَ كَيْفَ كَانَ يَتَأَنَّقُ صَبَاحًا وَيَذْهَبُ إِلَى كُلِّيَّتِهِ، يَقِفُ أَمَامَ الْمَرَاةِ سَاعَةً أَوْ أَكْثَرَ، صَامًا أُذْنِيهِ عَنْ سَخَرِيَّةِ أُمِّهِ الَّتِي يَسْرِقُ كَحَلَّهَا لِيُثَبِتَ بِهِ وَجُودَ لَحِيَّتِهِ الْخَفِيفَةِ عَلَى وَجْهِهِ، يَنْفَشُ شَعْرَهُ ثُمَّ يَمْسُدُهُ جَانِبًا، يَهْمُّ بِالْمَغَادِرَةِ وَهُوَ يُصْفَرُ، ثُمَّ يَعُودُ وَيَغْيِرُ تَسْرِيحَتَهُ الَّتِي يَحْسُدُهُ عَلَيْهَا رِفَاقُهُ دَوْمًا، كَوْنَهَا لَا تَتَأَثَّرُ حَتَّى بِعَصْفِ الْانْفِجَارَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ وَكَانَ فِي خِصْمِهَا أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ، أَيْقَنَ صَدَقَ وَصَفَهُمْ لَهُ، حِينَ تَوَهَّجَتْ ذَاتُ يَوْمٍ سَيَارَةِ أَمَامِهِ تَبِعَهَا صَوْتُ صَمٍّ آذَانَهُ وَأَذْهَبَ بِبَصَرِهِ لِلْحِظَاتِ عِنْدَمَا كَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَى كُلِّيَّتِهِ، وَبَعْدَمَا

أفاق من هول الصدمة تفقد جسده شبرًا شبرًا، فلم يعثر على أي خدشٍ، فيما كانت جُثُّ الضحايا تحيطُه من كلِّ جانبٍ، وصوتُ سياراتِ الإسعافِ والصُّراخِ والبكاءِ هو الطاغِي على المشهد المُرَوِّع، سار وهو يحاول ألا يفقد توازنه، فتعشَّر بنصفِ قطَّة ملقاة على الأرض، تأكَّد حينها أنه أفضل حظًّا منها وهي صاحبة الأرواح السبعة، ومنذ ذلك الحين يصفه أصحابه بأنه مضادٌّ للموت. بدأت الذكريات تتوافد بظهور طويل على شُبَّانك حياته الماضية، حتى سمع وقعَ أقدامٍ تركُض في زُقاق منزله، توقَّف عندها شريطُ الذكريات، وتبعها صوتُ إطلاقِ نارٍ كثيفٍ، انتفض من مكانه رعبًا وهلعًا، لحظات ورُفس باب بيتهم بقوة وامتلاً جوفهُ بعناصر التنظيم، صراخ والدته لم يفارق أُذنه منذ ذلك اليوم.

مضى على اعتقاله قرابة ستة أشهر، بعد خمسة أيام سيُنطق بالحكم عليه بتهمة كتابة الحرف (م)^(١) على مقر ديوان الجُند، أدخلوه وهو مقيّد اليدين، معصوب العينين إلى كنيسة تقع في عمق أحشاء المدينة القديمة، اتخذت مقرًّا للمحكمة الشرعية،

(١) (م): وتعني مقاومة، وهو حرف كان يقوم بكتابه على الجدران بالدهان الأحمر مجموعة مسلحة مناهضة للتنظيم نشطت إبان احتلال داعش لمحافظة نينوى صيف ٢٠١٤ ونفذت عمليات اغتيال ضد عناصر التنظيم.

داخل رأسه فوضى وخوف وتشتت وضياع، وصوت أمه لا يفارقه، نودي عليه فاقفاده أحدهم إلى قبو يقع تحت الكنيسة حيث القاضي الشرعي، قال له القاضي وهو يُمسّد لحيته المحناة: «إذن أنت أحد الكلاب الذين يعملون ضدنا ويكتبون الحرف ميم على مقراتنا ويناوئون حكم الشريعة الإسلامية، هل تعلم أيها الفاجر أنّ دولة الإسلام باقية رغم أنوفكم؟» اهتزّت أوصال جليل وارتعد خوفاً، أقسم له ألاّ دخل له في هذا الموضوع، وأنه طالب في كلية القانون، فضحك القاضي باستهزاء وهو يسوك أسنانه، «أيّ قانون وضعي تدرسونه أيها السفلة، وقانون الله موجود؟» تنحّج القاضي ثمّ بسمّل قائلاً: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ نُرْثِدُ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ فقال السجّان الذي يقف خلفه: «صدق الله العظيم»، ثمّ تابع وهو يضحك: «فأمّا العذاب فقد عذبتك عذاباً غسلك من الذنوب، ولم يتبقّ علينا إلّا أن نرسلك إلى الله؛ ليكمل ما بدأناه»، عدّل جلسته وساوى كوفيته البيضاء ونطق الحُكم بحزمٍ قائلاً: «حكمت المحكمة الشرعية في ولاية نينوى عليك بالإعدام، بتُهمة الرّدة والتعاون مع أزلام المرتدين، وسننفذ حكم الله فيك اليوم». أسقط في يد جليل، ظن أنّه يحلم، أصابه الخرس، تخلى عنه لسانه في أصعب موقف مما تبقى من حياته، فيما

كانت بارقة أملهِ الوحيد أن يستمر حظه، والذي سبق أن أكسبه لقب مضاد للموت، تشبَّث بصوت أمِّه الحنون الذي جاءه كعاصم ممَّا يجري حوله، كان صوتها كمخدر يهون عليه الموت الذي ينتظره فاردًا ذراعيه لاستقباله، تحوَّل إلى رماد هاجمته الرياح، حُشر رفقة خمسة من المحكومين بالإعدام في سيارة مظلمة، وانطلقت بهم الى جنوبي الموصل، حيث حفرة الموت (الخسفة)^(١) والتي ابتلعت قرابة الخمسة والعشرين ألف ضحية، تنفس جليل الصعداء، فقبل فترة ليست بالطويلة كان يتابع سرًّا على التلفاز، تقريرًا عن هذا المكان، وعَلِمَ أنَّ الآلاف من أبناء مدينته ألقوا فيه.

«إذا أنا لست وحدي»، قال لنفسه، «سألتقي بالكثير من الذين أعرفهم، وحتى وإن كنت لا أعرفهم فسأتعرف عليهم»، فجأةً بكى شوقًا لأمه التي لم تنطفئ حرائقها منذ اعتقاله وإلى اليوم، توقفت السيارة وأنزلوهم منها، قال أحد عناصر التنظيم: «أزيلوا العصابة عن عيونهم»، رفع جليل رأسه نحو الشمس، متذكرًا رسالة (فان كوخ) لأخيه (ثيو) قبل انتحاره حينما قال:

(١) الخسفة: هي حفرة جيولوجية عميقة تقع على بعد نحو ٢٠ كيلومترًا إلى الجنوب من مدينة الموصل مركز محافظة نينوى، وتعتبر واحدة من المقابر الجماعية التي استخدمها تنظيم داعش لإلقاء جثث ضحاياه فيها بعد إعدامهم.

«قريبًا سأعيد أمانة التراب، وأطلق العصفور من صدري نحو بلاد الشمس، أه أيتها السنون، سأفتح لك القفص بهذا المسدس».

رائحة الكبريت الممزوجة برائحة الدم والخوف التي تنبعث من الخسفة أفقدته اتزانه، أفزعه مشهد الملابس الممزقة المجبولة بالدماء، والتي ترفرف على غصون الأشجار الميتة التي تحيط بفم الحفرة، وآثار الأظافر التي تحاول التشبث بالحياة، رسمت في التراب لوحة الموت، وبينما هو ينتظر دوره، صلى على نفسه واقفًا، «أنا مشروع جنازة وسأصلي على نفسي»، قال لنفسه. أنهى صلاته، وعناصر التنظيم يجهزون أسلحتهم لتنفيذ الأحكام، سقط الوقت فوقه، وكاد أن يهلكه فانتظار الموت أصعب من الموت نفسه، شقت الصمت أولى الرصاصات وسط التكبيرات، ثم في الثانية تذكر طفولته الشقية، ومعها الحاجة قادرية التي كانت تباع مخاريط حب عباد الشمس عند باب دارها في أزقة حيّهم العتيق، والتي طالما ابتزها كثيرًا، بعد أن فتحت ذات يوم مخروطه الورقي فوجد صورة صدام حسين داخلها، فعاد إليها مسرعًا، وهمس في أذنها بخبث قائلاً لها إنه سيأتي وقتما يشاء، ويأخذ مخروطًا أو اثنين أو ثلاثة، من دون أن يدفع دينارًا واحدًا؛ وإلا فإنه سيخبر الرفيق الحزبي أبا نعمان بالأمير، وعندها ستضيع خلف الشمس، وبقي يبتزها

حتى نفذ عمرها، أطلقت الرصاصة الثالثة، فتسارعت أنفاسُ جليل وكأنها تريد الهروب هي الأُخرى، «لماذا أغلق عيني؟» سأل نفسه، «فمنذ الأزل وأنا أحبُّ رؤية الموتى، أقصد مواقع الانفجارات بعد وقوعها لرؤية الجثث، كنت أزور المقابر في وقت فراغي، أجلس عند شواهد القبور، وأقصّ حكايات على موتى لا أعرفهم، أحسدهم في بعض الأحيان بسرّي، لأنهم اجتازوا هذه المرحلة، وها أنا سأتساوى مع أقدمهم بعد لحظات»، أطلقت الرصاصة الرابعة ودُفعت الضحية داخل حلق الحُفرة الشره، علّا صوت طائرة مسيرة تحوم فوق المكان راصدةً حركتهم في هذا المكان المهجور، وضعتهم داخل نقطة الهدف وألقت حمولتها فأخطأتم فقتلت اثنين منهم، فتفرّق عناصر التنظيم المتبقون مختبئين بين الصخور، «انظري يا أمي إلّي، ها قد نجوتُ مرّةً أُخرى، وتغلّبتُ على الموت، أحبك يا أمّ جليل جدًّا، لا تقلقي يا غالية سنلتقي قريبًا». رحلت الطائرة فتسلّل المنفذون مرّةً أُخرى، وهم يستشيطنون غضبًا مكبرين ومتوعدين بفتح روما، توجهوا إلى جليل بعد أن قبلوا جباه قتلاهم مباركين لهم الشهادة، التفت جليل فوجد فوهةً مُوجّهةً نحو رأسه وعيونهم تتقادح شرًّا، ثبتوه على بقعة دم تعود لضحية سبقتة نحو الموت، وقبل أن يدوي صوت الرصاصة الخامسة،

جاء طيف القطة التي قصمتها الشظية إلى نصفين فابتسم بسرّه
قائلًا: «سأنجو منها دون أيّ شك».

انطفأتِ الكواكب والأنوار في رأس جليل بعد أن غادرت
الرصاصة الخامسة رأسه تحمل أشلاءً من مُخّه، الذي كان
يهوّن عليه قبل قليل ما سيحدث له، هوى جليل، لكنّه لم
يلامس قاع الحفرة أبدًا، حلّق عاليًا وبعيدًا عنها.

الخسفة عِشّ بشري يغادره الضحايا ما إن يتخلّصوا من
أجسادهم، كفراخ الطيور التي ترفس قشور البيض عنها وتحلّق
بعد أن يشتدّ جناحها وتكتسي ريشًا، بيوض بشريّة نحن،
تفقس مع موتنا ونحلّق نحو السّماء.

نشَبَ عراقك كبير بينَ العصافير فوق النخلة العجوز التي
تتوسط بيت جليل، هرعت أمّه المُتعبة ورفعت كفّيها إلى السّماء
داعيةً أن يردّ لها جليلها، فأمن إخوته وأخواته على دعائها
وعيونهم تترقق بالدموع، وها هي العصافير تتعارك كلّ يوم
دون أن تدري أمّه أن من يأتي زائرًا كلّ يوم هو ابنها جليل.

نَمَتْ

المحتويات

إهداء	٥
كفن جبريل	٧
زنزانة رقم WC	٢٢
الإصبع السادس	٣١
قلب بقرنين	٣٨
جُند إبليس	٤٨
أباييل	٥٤
مبید بشري	٧١
مناة الرابعة	٨٥
روح قوادة	٩٦
سودا فيد بلص	١٠١
راوتر	١١٠
مضادٌ للموت	١٢٠



“ بكفن من القار اتخذ شكل كتلة سوداء، كأنه نعش فرعوني، أنزل جبريل إلى مشواه الأخير، بينما ظل كفه الحريز الأبيض الذي نسجه مُعلّقاً على جدار غرفته، والذي سهر الليالي في نسجه متحمّلاً وخزات المغزل الذي آدمى أصابعه لأعوام طوال، لم يستدلّ الدفّانون على اتجاه رأسه حين انزلوه إلى اللحد، بعد أن التصق بجلده القار، وأصبح كتلة غائبة المعالم، بلا تضاريس بشرية، حيثها عجزوا عن تمييز ملامحه، فوضع في القبر مقلوباً عكس القبلة، فارق جبريل الحياة؛ بسبب عطسة جعلته يترنّح ويفقد توازنه، ويهوي داخل خزان أرضي فيه قار يغلي، ابتلعه ببطء كرمال مُحركة، فيما غلبت صوت صراخه أصوات محركاتِ معمل الإسفلت، التي يسمّعها القادم على بعد منات الأمتار، على مدار يومين متتاليين ورجال الدفاع المدني منهمكون وهم يحاولون استخراج جثته من القار بعدما برّد وأضحى قاسياً جداً تماماً كبرد ديسمبر، الذي كان قد سجّل دخوله بموجة ثلوج أقلق لونها سواد القار، لما غلب اليأس فرق الإنقاذ وتقطعت بهم السبل وعجزت جيلهم عن إخراجهِ من فكّ السواد الأصمّ، اضطروا نهاية الأمر إلى نحت جثته على شكل أنبوب من قار. نُقل جبريل على ظهر سديّة إلى مغسلة الموتى، كَبُر مُغسل الجنائز وفرّع ما أن وقعت عيناه على الجثة المُسجاة أمامه، سكب الماء الحار فوق كومة السواد، آملاً أن يعثر على رأس الميت، لكنّ سمكها حال دون ذلك، بكى بحرقة وهو يتشّهّد بصوت عالٍ ويحوّل، ويطلب من الله أن يرحمه ويوسع مدخله، ثمّ رشّ المسك والعنبر فوقه بعشوائية؛ ليمحو رائحة القار التي عبّقت المكان، لكنّ الأخيرة غلبت روائح العطور التي سكبت تواء وعادت لتسيطر على الأجواء.

“

